الحكم ابني مجاهد، وأصهر إليهما في ابنه أبي الحسن فأنكحاه ورشحاه للأمانة على ديوان الأعمال. ولما استقل أبو عبد الله الفازازي بالرياسة استكتبه وكان طياشاً مستعصياً على الخليفة، فكان كاتبه محمد بن الدبّاغ يروضه لأغراض الخليفة إذا دسّها إليه الحاجب ابن الشيخ، فيقع ذلك من الخليفة أحسن المواقع. ولما ولي السلطان أبو عصيدة وكانت له عنده سابقة رعاها، وكان حاجبه الشخشي بهمة غفلاً من أدوات الكتاب، فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقاه إلى كتاب علامته سنة خمس وتسعين وستمائة. وكان يتصرف فيها فأصبح رديفاً للشخشي في حجابته، وجرت أمور الدولة على ذلك إلى أن هلك الشخشي سنة سبع وتسعين وستمائة، وقلده السلطان حجابته فاستقل لها على ما قدمنا من أن التدبير والحرب مصروف إلى مشيخة الموحّدين.

الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنيه من بعده:

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص، وأصله من تينملل الموطّنين بتبرسق مذ أول الدولة، كانت له ولسلفه الرياسة عليهم، وصارت إليه رياسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة، وكان حريصاً على ولاية إبنه عبد الله للعهد. وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك، فأسرها له السلطان أبو عصيدة. ولما استوثق له الأمر، وقتل عبد الله بمحبسه تقبض على أبي محمد بن سليمان، واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين وستمائة. ولم يزل معتقلاً إلى أن قتل بمحبسه على رأس المائة السابعة. وفر عند نكبته ابناه محمد وعبد الله، فأما عبد الله فلحق بالأمير أبي زكريا، وصار في جملته إلى أن دخل تونس مع إبنه السلطان أبي البقاء خالد. وأما محمد فأبعد المفّر ولحق بالمغرب الأقصى، ونزل على يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان، فاستبلغ في تكريمه وأقام عنده مدة. ثم عاود وطنه ونزع عن طريقه إلى النسك ولبس الصوف، وصحب

الصالحين وقضى فريضة الحج، وامتدّ عمره وحسنت فيه ظنون الكافة، واعتقدوا فيه وفي دعائه، وكثرت غاشيته لالتماس البركة

منه. وأوجب له الخلفاء إزاء ذلك تجلّة أخرى، وأوفدوه على ملوك زناتة مرة بعد مرة في مذاهب الود وقصود الخير. وحضر في بعضها الجهاد بجبل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن، ولم يزل هذا دأبه إلى أن هلك في الطاعون الجارف في منتصف المائة الثامنة والله تعالى أعلم.

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين ومهاد اته:

كان السلطان أبو عصيدة لما استفحل أمره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الأمير أبي زكريا، وكان الأمير أبو زكريا قد انتقض عليه أهل الجزائر بعد مهلك عامله عليها من الموحدين من بني الكمازير، وانبر بها بعده محمد بن علّان من مشيختها. واستفحل أمر عثمان بن يغمراسن وبني عبد الواد من ورائه، وتغلّبوا على توجين ومغراوة، ومليكش، وكان شيعة لصاحب الحضرة بما كان متمسكاً بدعوتهم ومتقبلا مذهب أبيه في بيعتهم، فقويت غرائم السلطان أبي عصيدة لذلك، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين وستمائة. وتجاوز تخوم عمله إلى أعمال قسنطينة وأجفلت أمامه الرعايا والقبائل، وانتهى إلى ميلة، ومنها كان منقلبه إلى حضرته في رمضان من سنته.

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه أعمل الأمير أبو زكريا نظره في تسكين الناحية الغربية ليتفرّغ عنها إلى مدافعة السلطان صاحب الحضرة، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكد معه قديم الصهر بحادث الود والمواصلة. وفي خلال ذلك زحف يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين إلى تلمسان وألقى عليها بكلكله. واستجاش عثمان بن يغمراسن بالأمير أبي زكريا، فأمده بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزموهم وأثخنوا فيهم قتلاً ورجع فلهم إلى بجاية، وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين إلى بجاية، وعقد عليها لأخيه أبي يحيى بعد أن كان عثمان بن سباع وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية إليه، ومرغباً له في ملكها فأوسع له في الحباء

والكرامة ما شاء، وبعث معه هذا العسكر فانتهى إلى بجاية، وضايقوها ثم جاوزوها إلى تاكرارت وبلا سدويكش، وعاثوا في تلك الجهات ودوخوها وانقلبوا راجعين إلى سلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان.

وكان السلطان أبو عصيدة صاحب الحضرة لما علم بأمداد الأمير أبي زكريا لعثمان بن يغمراسن بعث إلى يوسف بن يعقوب عدوهم وحرضه على بجاية ونواحيها، وسفر بينهما في ذلك رئيس الموحدين أبو عبد الله بن أكماريز أولى سفارته. ثم سفر ثانية سنة ثلاث وسبعمائة بهدية ضخمة أغرب فيها بسرج وسيف ومهامز من الذهب مرصعة الحلى الفاخر من حصى الياقوت والجوهر. ورافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة أبو عبد الله بن برزيكن، ورجعاً بهدية ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلثمائة من البغال. واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات. وكان يوسف ابن يعقوب يكاتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً، ويكاتب رئيس الموحدين أبا يحيى بن اللحياني تصريحاً، وترددت عساكر بني مرين إلى نواحي بجاية إلى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل هداج وفتنة الكعوب وبيعتهم لأبي دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم:

كان هؤلاء الكعوب قد أثرتهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص، فعمروا ونموا وبطروا النعمة، وكثر عيثهم وفسادهم وطال إضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنات وانتهابهم للزرع، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم. ودخل رئيسهم هداج بن عبيد سنة خمس وسبعمائة إلى البلد فخزرته العيون، وهمّت به العامّة. وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنّوا عليه بأنه وطىء المسجد بخفّيه. وقال لمن نكر عليه ذلك: "إني أدخل به مجلس السلطان بهما "

فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه، وجروا شلوه في سكك المدينة، فزاد عيثهم وأجلابهم على السلطان. واستقدم أحمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان بن أبي دبوس من مكانه بنواحي طرابلس، ونصّبه للأمر، وأجلب به على الحضرة ونازلها.

وخرج إليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن في العساكر فهزمهم، وسار بالعساكر

لتمهيد الجهات وتسكين ثائر العرب، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل، ومعه سليمان بن جانع من رجالات هوّارة بعد أن راجع الطاعة. وصرف ابن أبي دّبوس إلى مكانه فتقبض عليهما، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين إلى أن هلك أحمد بمحبسه سنة ثمان وسبعمائة. وقام بأمر الكعوب محمد بن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا أخيه عمر رديفين له. ثم خرج الوزير بالعساكر ثانية سنة سبع وسبعمائة، واستوفد مولاهم ابن عمر، وتقبض عليه وبعث به إلى الحضرة فاعتقل مع عمه أحمد. وجاهر أخوة حمزة بالنفاق وأتبعه عليه قومه فكثر عيثهم، وأضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامّة، ولغطوا بها في الأسواق وتصايحوا. ثم نفروا إلى باب القصبة يريدون الثورة فسد الباب دونهم فرموا بالحجارة، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدبّاغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله. ورفع أمرهم إلى.. واستلحامهم جميعاً فأبى من ذلك السلطان، وأمر بملاطفتهم إلى أن سكنت هيعتهم. ثم تتبع العقاب من تولى كبر ذلك منهم، وانحسم الداء، وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان وسبعمائة. واستمّر العرب في غلوائهم إلى أن هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر واستبداد أبى علان بها:

قد قدمنا ما كان من انتقاض أهل الجزائر أيام المستنصر ودخول عساكر الموحدين

عليهم عنوة واعتقال مشيختهم بتونس، حتى أطلقوا بعد مهلكه، ولما استقل الأمير

أبو زكريا الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسنطينة. وكأن الوالي على الجزائر ابن أكمازير من مشيخة الموحدين فبادر إلى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر، ووفدوا عليه. وكتب لابن أكمازير بولايتها فلم يزل والياً عليهم إلى أن كان شأن بني مرين وزحفهم إلى بجاية. وكان ابن أكمازير قد أسن وهرم فأدركته الوفاة خلال ذلك. وكان ابن علان من مشيخة الجزائر مختصاً به ومتصرفاً فى أوامره ونواهيه ومصدراً لأمارته. حصلت له بذلك الرياسة على أهل الجزائر سائر أيامه. ويقال كان له معه صهر. فلما وصل ابن أكمار حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بالجزائر، فبعث عن أهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك أميره، وضرب أعناقهم وأصبح منادياً بالاستبداد. وشغل الأمير أبو زكريا عنه بما كان من منازلة بني مرين ببجاية إلى أن هلك، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر إلى أن تملكها بنو عبد الواد كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وبيعة ابنه أبي البقاء خالد:

كان الأمير أبو زكريا قد استولى على الثغور الغربية كما قلناه، واقتطعها من أعمال الحضرة، وقسم الدعوة الحفصية بدولتين. وكان على غاية من الحزم والتيقظ والصرامة لم يبلغها سواه. وكان كثير الإشراف على وطنه والمباشرة لأعماله بنفسه وسد خلله. ولم يزل على ذلك إلى أن هلك على رأس المائة السابعة. وكان قد عهد بالأمر لإبنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين وستمائة قبلها، وعقد له على قسنطينة وأنزله بها. فلما هلك الأمير أبو زكريا جمع الحاجب أبو القاسم بن أبي أبي جبى مشيخة الموحدين وطبقات الجند وأخذ بيعتهم للأمير أبي البقاء، وطير له بالخبر واستقدمه فقدم، وبويع البيعة العامة. وأبقى ابن أبي جبى على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الأعلام، وقدم على صنهاجة أبا عبد الرحمن بن يعقوب بن حلوب منهم،

ويسمى المزوار. وقلد رياسة الموحدين أبا زكريا يحيى بن زكريا من أهل البيت الحفصيّ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله:

قد قدمنا ما كان من زحف بني مرين إلى بجاية بمداخلة صاحب تونس. ولما ولي السلطان أبو البقاء اعتزم على المواصلة مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه، وعين للسفارة في ذلك شيخ القرابة يبابه أبا زكريا الحفصي ليحكم شأن المواصلة بينه وبينه. وبعث مع القاضي أبا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب شوراها، فأدوا رسالتهم وانقلبوا إلى بجاية، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فأغروه به وأشاعوا أنه داخل صاحب الحضرة في التوثّب بالسلطان. وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكره بجرائره، وما كان منه في شأن السلطان أبي إسحق وأنه الذي أغرى بني غبرين به، فاستوحش منه السلطان وتقبض عليه سنة أربع وسبعمائة. ثم أغروه بقتله فقتل بمحبسه تلك، وتولى قتله منصور التركي، والله غالب على أمره.

الخبر عن سفارة الحاجب ابن ابي حي إلي تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله:

ولما ولي السلطان أبو البقاء كانت عساكره بني مرين مترددة إلى أعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه، فدوخوا نواحيها. وكان ابن أبي جبى مستبداً على الدولة في حجابته، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم. ورأى أن اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن عزمهم فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من

سلطانه. فخرج من بجاية سنة خمس وسبعمائة وقدم على الحضرة رسولاً عن سلطانه، فاهتزت له الدولة وتلقي بما يجب له ولمرسله من البر، وأنزله شيخ الموحدين ومدبر الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني بداره استبلاغاً في تكريمه. وقضى من أمر تلك الرسالة حاجة صدره، وكان بطانة الأمير أبي البقاء خالد لما خلا لهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على التنصح إليه والسعاية بابن أبي جبى عنده.

القسم الرابع

المجلد السادس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلي الله علي سيدنا ومولانا محمد و اله وصحبه وسلم تسليما:

وشمر لذلك يعقوب بن غمر وجلّى فيه وتابعه عليه عبد الله الرخامي كاتب ابن أبي
حي وصديقه، بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس، ويوغر له صدورهم ببأوه وتحقيره بهم، فألح له العداوة في كل جانحة وأسخطه على عبد الله الرخامي. وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن غمر كبرها، وألقوا إلى السلطان أن ابن أبي حي داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغر قسنطينة وبجاية، بما كان علي بن الأمين العامل بقسنطينة صهراً لابن أبي جبى، وهو الذي ولاه عليها فاستراب السلطان به، وتنكر له بعد عوده من تونس. وخشي كل واحد منهما بادرة صاحبه. ثم رغب ابن أبي جبى في قضاء فرضه وتخلية سبيله إليه، فأسف وخرج من بجاية ذاهباً إلى الحج، ولحق بالقبائل من ضواحي قسنطينة وبجاية فنزل عليهم وأقام بينهم مدة. ثم لحق بتونس وأقام بها إلى حين مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد وحضر دخول الأمر أبي البقاء عليه بتونس، وخلص من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه. ثم عاد إلى

المغرب ومر بأفريقية ولحق بتلمسان وأغرى أبا حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر ومصائر أموره:

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن غمر السلمي، وكنيته أبو عبد الرحمن. كان

جده محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضيا بشاطبة، وخرج مع الجالية أيام العدو إلى

تونس، ونزل بالربض الجوفي أيام السلطان أبي عصيدة، وانتقل أبناؤه أبو بكر ومحمد إلى قسنطينة، ونزلا على ابن أوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الأمير أبي زكريا الأوسط، فأوسعهما عنايةً وتكريماً. وولّى أبا بكر على الديوان بالقل واستخلصه لنفسه. وكاد يتردّد إلى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل بمرجان الخصيّ من موالي الأمير أبي زكريا وخواص داره، واستخدم على يده للأمير خالد وامه من كرائم السلطان، فحظي عندهم وتزوج إبنه يعقوب من ربيبات القصر، وخوله، ونشأ في جو تلك العناية. وأعلنوا بصحبة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته، فاستخدم له سائر أيامه إلى أن هلك. وكان الحاج فضل كثيراً ما يتردّد إلى الأندلس لاستجلاب الثياب الحريرية من هنالك وانتقاء أصنافها. وكذلك إلى تونس لاستجادة الثياب منها.

وبعثه السلطان آخر أمره إلى الأندلس فاستصحب ابن غمر وهلك الحاج فضل هنالك، فعدل السلطان عن خطاب إبنه محمد إلى خطاب ابن غمر، فأمره بإتمام ذلك العمل والقدوم به فقدم هو وإبن الحاج فضل وساءلهما عن عملهما فكان ابن غمر أوعى من صاحبه فحلي بعينه وخفّ عليه، واعتلق بذمة من خدمته أحظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية. ثم قلّد أعمال الأشغال وزاحم ابن أبي جبى وعبد الله الرخامي، وغصّوا به فأغروا السلطان بنكبته. وأشخصه إلى الأندلس فأقام هنالك، واستعطف السلطان أبا البقاء بعد مهلك أبيه، وتشفّع بوسائل خدمته فاستقدمه. وقدم مع علي وحسين ابني الرنداحي، ركب معهما البحر إلى بجاية في مغيب ابن أبي جبى عن الحضرة فصادف من السلطان قبولاً، وشمر في السعاية بابن أبي جبى مع مرجان إلى أن تم له ما أراد من ذلك. وصرف ابن أبي جبى كما ذكرناه فقلد السلطان حجابته ليعقوب بن غمر. وقدم على الأشغال عبد الله الرخامي، وكان ناهضاً في أمور الحجابة لمباشرتها مع مخدومه، فأصبح رديفاً لابن عمر وغصّ بمكانه فأغرى به السلطان، ودلّه على مكامن ثورته وعداوته، فنكب وصودر وامتحن وغرّب إلى ميورقة، حتى افتداه يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين حين أسره، واستقدمه ليقلّده أشغاله عند تنكّره لعبد الله

بن أبي مدين كما نذكره في أخباره. فهلك يوسف بن يعقوب دون ما أمل من ذلك، وأقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه. واستقل يعقوب بن غمر بأعباء خطته
واضطلع بها، وقوّض إليه السلطان في الإبرام والنقض فحوّل المراتب بنظره وأجرى الأمور على غرضه. وكان أول ما أتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملأ صدر السلطان عليه، وحذّره مغبته فتقبّض عليه والقي في البحر يلتقمه الحوت، فخلا وجه السلطان لابن غمر، وتفرد بالعقد والحل إلى أن استولى السلطان أبو البقاء على الحضرة، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله:

كان يوسف بن الأمين الهمداني بعد أن قتله بطنجة أبناء أبي يحيى بن عبد الحق
من بني مرين كما يأتي في أخبارهم، انتقل بنوه إلى تونس أيام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة قيامهم بالدعوة الحفصية أيام أبي علي بن خلاص بسبتة وبعدها إلى أن غلبهم عليها العزفي كما نذكر في أخباره، فلقّاهم مبّرة وتكريماً، ونزلوا في الحضرة خير نزل، تحت جراية ونعمة وعناية. وكان كبيرهم متحمّقاً متعاظماً، فربما لقي من الدولة لذلك عسفاً. إلا أن الإبقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم. ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم.
ثم هلك السلطان واضطربت الأمور، وضرب الدهر ضرباته، ولحق عليّ منهم
بالثغر الغربي وتأكّدت له مع ابن أبي جبى لحمة ونسب وذمه صهر وشجت بينهما عروقها. فلما استقل ابن أبي جبى بحجابة الأمير أبي زكرياء لم يأل جهداً في مشاركة علي بن الأمير وترقيته المنازل إلى أن ولّاه ثغر قسنطينة مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا وأنزله معه فقام بحجابته. وأظهر فيها غناءه وحزمه، حتى إذا سخط السلطان ابن أبي جبى

وصرفه عن حجابته تنكر أبو الحسن بن الأمين وخشي بوادر السلطان فحول الدعوة إلى صاحب الحضرة، وطيّر إليه بالبيعة، واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد

اللحياني، وعقد البيعة لسلطانه سنة أربع وسبعمائة.

وبلغ الخبر إلى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض إليه بالعساكر آخر سنة أربع وسبعمائة، ونازله أياماً فامتنع عليه، وهمّ بالإفراج عنه. ثم داخل رجل من بطانة ابن الأمير يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخة الموحدين، وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى إلى السور، فتسنّمه المقاتلة بإغضاء ابن موزة لهم عنه. وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد، وقد استمكن أولياؤه منه فخرج إليه بنو الغنفل، وبنو باديس ومشيخة البلد، فاقتحم البلد عنوة. ومضى أبو محمد الرخامي في رجال السلطان إلى دار ابن الأمين فغشيه بها وقد انفض عنه الناس، واستحصن بغرفة من غرف داره واستمات، فلاطفه الرخامي واستنزله. ثم حمله على برذون مستدبراً، وأحضره بين يدي السلطان فقتل، ونصب شلوه، وأصبح آية للمعتبرين والله أعلم.

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء إلى الجزائر:

قد قدمنا ما كان من خبر انتقاض الجزائر على الأمير أبي زكريا واستبداد ابن علان

بها. فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهّدت له الأحوال، وأقلع بنو مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تلمسان أعمل السلطان نظره في الحركة إليها، فخرج إليها سنة سبع وسبعمائة أو ست وسبعمائة، وانتهى إلى متيجة ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه، ولجأ إليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل أمير مغراوة هارباً أمام بني عبد الواد فأواه إلى ظلّه وألقى عليه جناح حمايته. واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل. وزحف إلى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت عليه، وانكفأ راجعاً إلى حضرته ببجاية، وأقام مليكش على طاعته ومطاولته الجزائر بالقتال، إلى أن كان من أمرها وتغلّب بني عبد الواد عليها ما نذكره في أخبارهم.

وجاء معه راشد بن محمد إلى بجاية متذمّماً بخدمته إلى أن قتله عبدالرحمن بن خلوف كما يذكر في موضعه إن شاء الله تعالى.

الخبر عن السلف وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية:

لما افتتح السلطان أبو البقاء خالد قسنطينة وقتل ابن الأمير وفرغ من ذلك الشأن

أدرك أهل الحضرة الندم على ما استدبروا من مهادنة صاحب الثغر، وقارن ذلك مهلك يوسف بن يعقوب الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا إلى السلم، وبعثوا وفدهم في ذلك إليه فأسدوا وألحموا. وشرط عليهم السلطان أبو البقاء أن من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للاخر والبيعة له، فتقبلوا الشرط وحضر الملأ والمشيخة من الموحدين ببجاية، ثم بتونس فأشهدوا بها على أنفسهم، وربط ذلك العقد وأحكمت أواخيه إلى أن نقضه أهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس أبي يحيي اللحياني لحصار جربة ومضيه منها إلي الحج:

لما أمر هذا الصلح واستتم راجع رئيس الدولة أبو يحيى زكريا بن اللحياني نظره لنفسه، وأعمل فكره في الخلاص من أنشوطته وكان يؤمل رجوع الوفد المغربين بالمهديّة من أمراء الديار المصرية إلى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه، وابطأ عليه شأنهم فاعتزم على قصده وورّى بحركته إلى جزيرة جربة لاسترجاعها من أيدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذاك إلى الجريد لتمهيد أحواله. وتناول الرأي في الظاهر من أمره مع السلطان فأذن له. وسرح معه العساكر فخرج من

تونس في جمادى سنة ست وسبعمائة غازياً إلى جربة. ولم يزل يغذّ السير حتى انتهى إلى مجازها. ثم عبر منه إلى الجزيرة، وكان النصارى لما تغلبوا عليها سنة ثمان وثمانين وستمائة شيّدوا بها حصناً لاعتصام الحامية سمّوه بالقشتيل، فنزل في العساكر عليه. وأنفذ الشيخ أبو يحيى عمّاله للجباية وأقام في منازلته شهرين. ثم انقطعت الأقوات واستعصى الحصن إلاّ بالمطاولة فرجع إلى قابس. ثم ارتحل إلى بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها، وأعنى في خدمته أحمد بن محمد بن بهلول من مشيختها، فاستوفى جباية الجريد وعاد إلى قابس.

وأنزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بداره، وصرّح بما روى عنه من حجّه. وصرف العساكر إلى الحضرة وولي بعده رياسة الموحدين وتدبير الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن، وتحول عن قابس إلى بعض جبالها تجافياً عن هوائها الوخم. وأقام في انتظار الركب الحجازي وكان مريضاً إلى أن أبل فتحول عنه إلى طرابلس، وأقام بها عاماً ونصفه إلى أن وصل وفد الترك من المغرب الأقصى آخر سنة ثمان وسبعمائة، فخرج معهم حاجاً حتى قضى فرضه وعاد فكان من شأنه واستيلائه على منصب الخلافة ما يأتي ذكره. ووصل مدد النصرانية إلى قشتيل جربة سنة ثمان وسبعمائة بعد منصرف العساكر عنهم وفيهم فردريك بن الطاغية صاحب صقلية، فقاتلهم أهل الجزيرة من النكارين لنظر أبي عبدالله بن الحسن من مشيخة الموحدين ومعه ابن أومغار في قومه من أهل جربة فأظفرهم الله بهم. ولم يزل شأن هذه الجزيرة مع العدوّ كذلك منذ التاثت دولة صنهاجة، وربما وقعت الفتنة بين أهلها من النكارة فتصل إحدى الطائفتين يدها بالنصارى إلى أن كان ارتجاعها في هذه النوبة سنة.. وأربعين لعهد مولانا السلاطان أبي يحيى كما نذكر في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد:

كان السلطان أبو عصيدة بعد تملّي سلطانه وتمهيد ملكه طرقه مرض الاستسقاء

فأزمن منه. ثم مات على فراشه في ربيع الآخر سنة تسع وسبعمائة، ولم يخلف ابناً، وكان بقصرهم سبط من أعقاب الأمير أبي زكريا جدّهم. ثم من ولد أبي بكر ابنه الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة أيام السلطان المستنصر، فلم يزل بنوه بقصورهم وفي ظل ملكهم. ونشأ منهم أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في إيالة السلطان أبي عصيدة، وربي في جميم نعمته. فلما هلك السلطان أبو عصيدة ولم يعقب، وكان السلطان أبو البقاء خالد قد نزع إليه حمزة بن عمر عند إياسه من خروج أخيه من محبسه فرغّبه في ملك الحضرة واستحثه عليها. ثم وصل أبو عبد الله بن يرزيكن السلطان أبا عصيدة واستنهض السلطان أبا البقاء لملك تونس، فنهض كما نذكره. واستراب الموحدون بتونس بشأن حركته وخافوه على أنفسهم فبايعوا لهذا الأمير أبي زكريا الذي عرف بالشهيد بما كان من قتله لسبع عشرة ليلة من بيعته، وأبقى أبا عبد الله بن يرزيكن على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة. وتوّعده لما كان يحقد عليه من التقصير به أيام سلطانه، فكان عونا عليه إلى أن هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء علي الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية:

لما بلغ السلطان أبا البقاء بمكانه من بجاية وأعمالها الخبر بمرض السلطان أبي

عصيدة مع ما كان من العقد بينهما بأنّ من مات قبل صاحبه جمع الأمر من بعده للآخر، داخلته الظنّة أن ينقض أهل الحضرة هذا الشرط فاعتزم على النهوض لمشارفة الحضرة، ووصل إليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم، فرغبه واستحثه، وخرج من بجاية في عساكره، وورى بالحركة إلى الجزائر لما كان من انتقاضهم على أبيه، واستبداد ابن علّان بها. ثم ارتحل إلى قصر جابر وعند بلوغه إليه ورد الخبر بمهلك السلطان أبى عصيدة وبيعة

الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا، فاضطغنها على الموحدين.

وأغذّ السير، وانحاش إليه كافة أولاد أبي الليل. واجتمع أمثالهم أولاد مهلهل إلى

صاحب تونس، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير أبو عبد الله بن يرزيكن، في العساكر للّقاء، ووقوا سلطانهم بأنفسهم. فلما زحف إليهم السلطان أبو البقاء اختلّ مصافهم وانهزموا وانتهب المعسكر، وقتل الوزير ابن يرزيكن، وأجفلت أحياء العرب إلى القفر ودخل العسكر إلى البلد واضطرب الأمر، وخرج الأمير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلاً ثم تفرّق عنه العسكر وتسايلوا إلى السلطان أبي البقاء. وفر أبو بكر ثم أدرك ببعض الجنات فثلّ إلى السلطان واعتقله في بعض الفازات، وغدا على السلطان أهل الحضرة من مشيخة الموحدين والفقهاء والكافة فعقدوا بيعته. وقتل الأمير أبو بكر فسمّي الشهيد آخر الدهر، وباشر قتله ابن عمه أبو زكرياء يحيى بن زكريا شيخ الموحدين. ودخل السلطان من الغد إلى الحضرة واستقل بالخلافة، وتلّقب الناصر لدين الله المنصور. ثم استضاف إلى لقبه المتوكل. وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رياسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكريا يحيى بن أبي الأعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمرّ على خطة الحجابة أبو عبد الرحمن يعقوب بن غمر، وولّى على الأشغال بالحضرة منصور بن فضل بن مزني، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة ابن مزني يحيي بن خالد ومصاير أموره:

كان يحيى بن خالد ابن السلطان أبي إسحق في جملة السلطان أبي البقاء خالد، وتنكّرت له الدولة لبعض النزعات فخشي البادرة وفر فلحق بمنصور بن مزني. وكان منصور قد استوحش من ابن غمر فدعاه إلى القيام بأمره فأجاب وعقد له على حجابته، وجمع له العرب وأجلب على قسنطينة أياماً، وبها يومئذ ابن طفيل، وكان قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الأوغاد، واشتملوا عليه واشتمل عليهم وأغروه بابن مزني فوعدهم إلى حين ظفره، واطلع ابن مزني على سوء دخلته ودخلتهم فقبض يده من طاعته، وانصرف عنه إلى بلده، وانفضت جموعه. وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي

البقاء ومخالصة بطانته وحاجبه فتقبلوه، ولحق

يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشاً، ونزل على أميرها أبي زيّان محمد بن عثمان بن يغمراسن فهلك لأيام من مقدمه. وولي بعده أخوه أبو حمو موسى بن عثمان فأمدّه وزحف إلى محاربة قسنطينة فامتنعت عليه. ثم استدعاه ابن مزني إلى بسكرة فأقام عنده وأسنى له الجراية، ورتب عليه الحرس. وكان السلطان ابن اللحياني يبعث إليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه، حتى لقد أقطع له بتونس من قرى الضاحية، فلم يزل في إسهام بنيه من بعده إلى أن هلك يحيى بن خالد بمكانه عنده سنة إحدى وعشرين وسبعمائة والله تعالى أعلم.

الخبر عن بيعة السلطان أبي بكر بقسنطينة علي يد الحاجب ابن عمر وأوّلية ذلك:

لما نهض السلطان أبو البقاء إلى الحضرة عقد على بجاية لعبد الرحمن بن يعقوب بن الخلوف مضافاً إلى رياسته على قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها، وكان يلقب المزوار، وجعله حاجباً لأخيه الأمير أبي بكر على قسنطينة فانتقل إليها. وعكف السلطان أبو البقاء بتونس على لذّاته وأرهف حدّه وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدويكش ودعار بن حريز من رجالات الأثابج فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا بادرته، وأعمل الحاجب ابن غمر وصاحبه منصور بن فضل عامر الزاب الحيلة في التخلص من إيالته واستعصب راشد بن محمد أمير مغراوة، كان نزع إليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه، فتلقوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم، وعليه وعلى قومه كانت تدور رحى حروبهم.

واستصحبه السلطان أبو البقاء خالد إلى الحضرة أميراً على زناتة فرفع بعض حشمه

الى الحاجب في مقعد حكمه، وقد استعدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحينه. وأحفظ ذلك الأمير راشد بن محمد فرتب لها عزائمه، وقوض خيامه لحينه مغاضباً،

فوجد الحاجب بذلك سبيلاً إلى قصده وتمت حيلته وحيلة صاحبه. وأهم السلطان شأن بجاية ونواحيها، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن بن الخلوف وفاوضهما فيمن يدفعه إليها فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني، وأشار منصور بالحاجب وتدافعها أياماً حتى دفعهما جميعاً إليها. وطلب ابن غمر من السلطان العقد لأخيه أبي بكر على قسنطينة فعقد له، وولى علياً ابن عمه على الحجابة بتونس نائباً عنه. وفصل من الحضرة ولحق بقسنطينة، وصرف منصور بن فضل إلى عمله بالزاب فكان من خلافه ما يذكر. وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرف في حجابته. ثم داخله في الانتقاض على أخيه، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان أبو البقاء وأحس علي بن غمر بارتيابه فلحق بقسنطينة. وجهز السلطان أبو البقاء عسكراً وعقد عليها لظافر مولاه المعروف بالكبير، وسرحه إلى قسنطينة فانتهى إلى باجة وأراح بها إلى أن كان من أمره ما نذكره. وبادر ابن غمر إلى المجاهرة بالخلعان، ودعا مولانا السلطان أبا بكر إليه فأجابه، وأخذ له البيعة على الناس فتمت سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وتلقب بالمتوكل وعسكر بظاهر قسنطينة إلى أن بلغه مجاهرة ابن الخلوف بخلافهم فكان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء السلطان علي بجاية وقتل ابن مخلوف وما كان من الإدارة في ذلك:

كان يعقوب بن مخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهاجة جند السلطان الموطنين بنواحي بجاية، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوّهم. ولما نزلت عساكر بني مرين على بجاية مع أبي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمائة كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة. وكان الأمير أبو زكريا وإبنه يستخلفونه ببجاية أزمان سفرهم عنها، وكان يلقب بالمزوار. ولما هلك خلفه في

سبيله تلك إبنه عبد الرحمن واستخلفه السلطان أبو البقاء على بجاية عندما نهض إلى تونس سنة تسع وسبعمائة وأنزله بها، وكان طموحاً لجوجاً مدلأ بباسه وقومه ومكانه من الدولة. فلما دعا السلطان أبو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه، وأخذ له أبو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية وأعمالها فأبى منها، وتمسك بدعوة صاحبه، ونفس على ابن غمر ما تحصل له بذلك من الحظ فجاهر بخلافهم.

وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الأشغال عبد الواحد ابن القاضي أبي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد بن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من أهل المريّة كان أسدى إليه عند اجتيازه به معروفاً، ورحل إليه عندما استولى على الرتبة ببجاية فكافأه عن معروفه واصطنعه وألقى إليه محبته ورقاه إلى الرتب، وصرفه في أعمال الجباية وقلده ديوان بجاية فتقبض عبد الرحمن بن الخلوف عليه وعلى صاحبه. وجمع
الناس وأعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد. وارتحل السلطان أبو بكر من معسكره بظاهر قسنطينة وأغذ السير إلى بجاية، ونزل مطلاً عليها، واقتتل الناس عامة يومهم. وشرط ابن الخلوف على السلطان عزل ابن غمر، وترددت الرسل بينهم في ذلك. وكان الوزير أبو زكريا بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الإصلاح بما كان له من الصهر مع ابن الخلوف. وحين رجع إليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع إليهم وحبسه عنده، وأرجف أهل المعسكر بالسلطان، وخاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة أهل الشوكة والعصبية والعديد والقوة.
وأجفل السلطان من معسكره فانتهب وأخذت آلته، وسلب من كان في المعسكر
من أخلاط الناس، ودخل السلطان إلى قسنطينة في فل من عسكره. وبعث ابن خلوف عسكراً في أتباعه فوصلوا إلى ميلة فدخلوها عنوة. ثم وصلوا إلى قسنطينة فقاتلوها أياماً، ورجعوا إلى بجاية. وأقام السلطان واضطرب أمره، وتوقع زحف ظافر إليه من باجة، واتصل به أن أبا يحيى زكريا بن أحمد اللحياني قفل من المشرق، وأنه لما انتهى الى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بأفريقية من الاضطراب، فبويع وتوافت إليه

العرب من كل جهة، فرأى السلطان من مذاهب الحزم أن يبعث إليه بالحاجب ابن أبي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطانه، ويشغل أهل الحضرة عنه، فورى بالفرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر بابن مخلوف في ذلك.

ولحق ابن غمر باللحياني واستحثه لملك تونس وهون عليه الأمر، وغدا السلطان

عند فصول إبن غمر على منازله فكبسها وسطا بحاشيته، وولى حجابته حسن بن ابراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس أهل الجبل المطل على قسنطينة والفل من كتامة، ويعرف قومه ببني نليلان وكان قد اصطنعه من تبل، وارتحل بالعسكر إلى بجاية سنة إثنتي عشرة وستمائة. واستخلف على قسنطينة عبد الله بن ثابت أخا الحاجب.

واشيع بالجهات أن السلطان تنكر لابن عمر وسخطه، وأنه ذهب إلى ابن اللحياني واستجاشه على الحضرة، وبلغ ذلك ابن خلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر. وتوثق لنفسه منه بالعهد بمداخلة عثمان بن شبل وعثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الزواودة والولي يعقوب الملاري من نواحي قسنطينة. وأغذ السير إلى بجاية، ولقي السلطان بفرجيوه من بلاد سدويكش فلقاه مبرة ورحباً. ثم استدعاه من جوف الليل إلى رواقه في سرب من مواليه المعلوجي فعاقرهم الخمر إلى أن ثمل، واستغضبوه ببعض النزعات فغضب وأقذع فتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن قتلوه، وجروا شلوه فطرحوه بين الفساطيط، وتقبض على سائر قومه وحاشيته، وفر كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب. وارتحل السلطان مغذا إلى بجاية فدخلها على حين غفلة. واستولى على ملك ابنه بالناحية الغربية واستوثق له أمرها، وأقام في انتظار حاجبه ابن غمر إلى أن كان من الأمر ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيي بن اللحياني علي الحضرة:

كان السلطان أبو البقاء خالد بعد بيعة السلطان أبي بكر بقسنطينة قد اضطرب أحواله وجهز إليه العساكر لمنازلة قسنطينة، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير، فعسكر بباجة وأراح ينتظر أمر السلطان. وكان أبو يحيى زكريا بن أحمد بن محمد اللحياني بن أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص قد بويع بطرابلس لما قفل من المشرق، ورأى اضطراب الأحوال ووفد عليه الحاجب أبو عبد الرحمن بن غمر بهدية من السلطان أبي بكر، وأنه ممده ومظاهره على شأنه، فأحكم ذلك من عقدته وشد من أمره، وتوافت إليه رجالات الكعوب أولاد أبي الليل وغيرهم فبايعوه واستحثوه للحضرة، فارتحل إليها وبعث في مقدمته أولاد أبي الليل، ومعهم شيخ دولته أبو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فأغذوا السير إلى الحضرة.

وبعث السلطان إلى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً فاعترضوه قبل وصوله، وأوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصبحوا تونس ثامن جمادى سمنة إحدى عشرة وسبعمائة، ووقفوا بساحتها فكانت هيعة بالبلد قتل فيها شيخ الدولة أبو زكريا الحفصي، وعدا القاضي أبو إسحق بن عبد الرفيع على السلطان. وكان متبوعاً صارماً قوي الشكيمة، فأغراه بمدافعة العدو فخام عن لقائه، واعتذر بالمرض وأشهد بالانخلاع عن الأمر وحل البيعة. ودخل أبو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله.

ثم جاء السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني على أثره ثاني رجب فبويع العامة بظاهرها ودخل إلى البلد، واستولى عليها وولى على حجابته كاتبه أبا زكريا يحيى بن علي بن يعقوب، على الأشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب. وبنو يعقوب هؤلاء أهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء، وقدموا إلى الحضرة مع الجالية، وكان منهم أبو القاسم عبد الرحمن بن يعقوب، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدمناه، وتصرف في القضاء بأفريقية وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة. وسفر عنه

إلى ملوك مصر، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من أقاربه، وكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها. وكان

عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد، وهلك بتوزر سنة إثنتين وسبعمائة. وكان السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد استكتب أخاه أبا زكريا يحيى أيام رياسته على الموحدين فحظي عنده واختصه ولازمه، وحج معه. فلما ولي الخلافة أحظاه وولاه حجابته. ولما استقر بتونس، واستوثق له الأمر أعاد الحاجب أبا عبد الرحمن بن غمر إلى مرسله السلطان أبي يحيى بعد أن وثق العهد معه على المهادنة، وضمن له ابن غمر من ذلك ما رضيه وتملك بابن عمه على ابن غمر فأقام عنده مكرما متسع الجراية والإسهام إلى أن كان من الأمر ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن قدوم ابن غمر علي السلطان ببجاية ونكبة ابن ثابت وظافر الكبير:

لفا قدم ابن غمر على بجاية استبد بحجابته وكفالته كما كان، وليوم وصوله فر

عبد الله بن هلال كاتب ابن مخلوف، ولحق بتلمسان وشمّر ابن غمر عزائمه للإطلاع بأمره، ودفع حسن بن إبراهيم بن ثاب عن الرتبة فلم يتزحزح له يوماً، وخرج لجباية الوطن. ثم أكرى به السلطان وحذره من استبداده بقسنطينة لمكان معقله المجاور لها وسعايات ننصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه. وخرج السلطان في العساكر من بجاية إلى قسنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة للنظر أحوالها. فلما انتهى إلى فرجيوه لقيه عبد الله بن ثابت فتقبض عليه وعلى أخيه حسن بن الحاجب سنة ثلاث عشرة وسبعمائة وقتلهما بعد أن استصفى أموالهما، ويقال إنه بعد خروج حسن بن ثابت إلى أعمال قسنطينة بعث في أثره بعض مواليه، وأوعز معهم إلى عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن. وإن السلطان لم يباشر نكبته. وكان ظافر الكبير بعد إنهزامه وحصوله في أسر العرب كما قدمناه امتنعوا عليه وأطلقوه، ولحق بالسلطان أبي بكر فأثره واستخلصه كما كان لأخيه، وولاه على

قسنطينة عند نكبة ابن ثابت. واستكتب له أبا القاسم بن عبد العزيز لخلوه من الأدوات فأقام ظافراً والياً بقسنطينة. ثم استقدمه السلطان إلى بجاية وقد غص ابن غمر بمكانه، فأغرى به السلطان فتقبض عليه، وأشخصه في السفين إلى الأندلس والله أعلم.

الخبر عن منازلة عساكر بني عبد الواد بجاية وما كان في أثر ذلك من الأحداث:

كان السلطان أبو يحيى بعد إنهزامه عن بجاية سنة عشر وسبعمائة، وبعث سعيد بن يخلف

من مواليه إلى أبي حمو موسى بن عثمان بن يغمراسن. وكان قد اتيح له في زناتة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز. وتملك أمصاره من أيدي بني مرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب على تلمسان ودوخ جهاته. واستولى على أعمال مغراوة وتوجين، وملك الجزائر، واستنزل منها ابن علان الثائر بها. وملك تدلس من يد ابن مخلوف فبعث إليه السلطان في المواصلة والمظافرة، وأن تكون يدهما على ابن مخلوف واحدة، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية. ثم بلغه مهلك ابن مخلوف، واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة، وادعى أن بجاية له في شرطه، وقارن ذلك لحاق صنهاجة إليه عند مهلك صاحبهم فرغبوه في ملك بجاية وضمنوا له أمرها. ثم قدم عثمان بن سباع بن يحيى مغاضباً للسلطان لما كان من افتياته عليه في ابن خلوف وإخفار ذمته وعهده فيه، واستقر عنده ابن أبي جبى منذ منصرفه عن الحجابة ورجوعه من الحج فرغبوه في ذلك واستحثوه لطلب بجاية، فسرح العساكر إليها لنظر محمد ابن عمه يوسف بن يغمراسن ومسعود ابن عمّه أبي عامر إبراهيم، ومولاه مسامح. وبعث معهما أبا القاسم بن أبي جبى الحاجب ففصلوا عنه من دار مقامته بشلف، فأغذوا السير. وهلك ابن أبي جبى بجبل الزاب ونازلوا البلد. ثم جاوزوها إلى الجهات الشرقية

فأثخنوا فيها ودخلوا جبل ابن ثابت، واستولوا عليه واستباحوه سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحة أعظم السيل، وقفلوا راجعين فشيدوا حصناً بأصفون وشحنوه بالأقوات. ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبخهما وطوفهما ذنب القصور والعجز، وعزلهما. وبعث السلطان عسكراً في البر وأسطولاً في البحر بعد رجوعه من قسنطينة سنة أربع عشرة وسبعمائة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون فخرب وانتهبت أقواته وعدده. وسرح أبو حمو عسكراً لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمه أبي عاص إبراهيم بن يغمراسن فنازلوها سنة خمس عشرة وسبعمائة، واتصل لهم خروج

محمد بن يوسف بن يغمراسن وبني توجين معه على أبي حمو، وأنهم أوقعوا به وهزموه، واستولوا على معسكره فأجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وأفرجوا عن بجاية. ووصل على أثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياش فبعث السلطان إليه صنيعته محمد بن الحاج فضل بالهدية والآلة، ووعده بالمظاهرة وتسويغ الأسهام التي كان ليغمراسن بأفريقية. وشغل بنو عبد الواد عن بجاية، وخرج السلطان في عساكر الإشراف على وطنه إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية:

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى أن زمامه بيده، وأمره متوقف على إنفاذه. وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغربهم، وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه. وداخله بعض أهل قسنطينة سنة ثلاث عشرة وتسعمائة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك، ولم يتم ففطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً. ثم رجع السلطان إلى بجاية سنة ثلاث عشرة وسبعمائة لما أهمهم حصاره، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد إلى أن بلغ السلطان أشده وأرهف حده، وسطا بمحمد بن فضل فقتله في خلوة معاقرته من غير مؤامرة

الحاجب. وباكر ابن غمر مقعده بباب السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرجا في ثيابه، وأخبر أن السلطان سطا به فداخله الريب من استبداد السلطان وإرهاف حده، وخشي بوادره، وتوقع سعاية البطانة ونجي وأهل الخلوة. فتحيّل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فأغراه بطلب أفريقية من يد ابن اللحياني، وجهزه بما يصلحه من الآلة والفساطيط والعساكر والخدام، ورتب له المراتب. وارتحل السلطان إلى قسنطينة سنة خمس عشرة وسبعمائة. ثم تقدم غازياً إلى بلاد هوارة، وأجفل عنها ظافراً بمن تعاطى قائدها من مواليهم فاستوفى جباية هوّارة. وقفل إلى قسنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة واستبد ابن غمر ببجاية ومدافعة العدو من زناتة عنها. واستخلف على حجابته السلطان محمد بن القالون، وقرت عينه بما كان يؤمل من استبداده إلى أن كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

الخبر عن سفر السلطان أبي يحيي اللحياني إلى قابس وتجافيه عن الخلافة:

كان هذا السلطان أبو يحيى بن اللحياني قد طعن في السن وكان بصيراً بالسياسة

مجّرباً للأمور، وكان يرى من نفسه العجز عن حمل الخلافة واستحقاقها مع أبناء الأمير أبي زكريا الأكبر. وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغربية الأمير أبي بكر واستغلاظ أمره بمن انتظم في ملكه وارتسم في ديوان جنده من أعياص زناتة وفحول شلوهم، من توجين ومغراوة وبني عبد الواد وبني مرين. كانوا ينزعون إليه مع الأيام عن ملوكهم خشية على أنفسهم، لما قاسموهم في النسب وساهموهم في يعسوبيّة القبيل وفحوليّة الشول. ومنهم من غلبوا على مواطنهم وملكوها عليهم مثل مغراوة وبني توجين ومليكش، فاستكثف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك.

ونهض سنة ست عشرة وسبعمائة إلى أفريقية وجال في بلاد هوّارة وأخذ جبايتها كما ذكرناه،

فتوقع السلطان ابن اللحياني زحفه إليه بتونس. وكانت أفريقية مضطربة عليه، وكان تعويله في الحماية والمدافعة على أوليائه من العرب، تولى منهم حمزة بن علي

عمر بن أباب الليل فحكمه في أمره وأشركه في سلطانه، وأفرده برياسة العرب وأجره الرسن، وسرب إليه الأموال، وكثر بذلك زبون العرب واختلافهم عليه، فاعتزم على التقويض عن أفريقية ونفض اليد من الخلافة، فجمع الأموال والذخيرة وباع ما كان بمودعاتهم من الآنية والفرش والخرثي والماعون والمتاع، حتى الكتب التي كان الأمير أبو زكرياالأكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها. اخرجت للوراقين فبيعت بدكاكين سوقهم. فجمع من ذلك زعموا قناطير من الذهب تجاوز العشرين قنطاراً، وجوالقين من حصى الدرّ والياقوت. وخرج من تونس إلى قابس موريّاً بمشارفة عملها فاتح سبع عشرة وسبعمائة بعد أن رتب الحامية بالحضرة وباجة والحمامات، واستخلف بالحضرة أبا الحسن بن وانودين وانتهى إلى قابس فأقام بها، وصرف العمال في جهاتها إلى أن كان من بيعة ولده بتونس ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر إلى الحضرة ورجوعه إلى قسنطينة:

لما خرج السلطان من هوارة إلى قسنطينة سنة ست عشرة وسبعمائة كما قدمناه، استبلغ في

جهاز حركة أخرى إلى تونس، فاحتشد وقسم العطاء وأزاح العلل، واعترض الجنود عن طبقاتهم من زناتة والعرب وسدويكش. واستخلف على قسنطينة الحاجب محمد بن القالون. وبعث إلى حاجبه الأعظم أبي عبد الرحمن بن غمر بمكانه من إمارة بجايةفي مدد المال في النفقات والأعطيات. فبعث إليه منصور برت فضل بن مزني عامل الزاب: وكان ابن عمر لما رأى من كمايته وأنه جماعة للمال، استضاف له عمل جبل أورأس والحصنة وسدويكش وعياض وسائر أعمال الضاحية، فكانت أعمال الجباية كلها لنظره وأمواله في حسبان دخله وخرجه. فبعث ابن غمر ليقيم إنفاق السلطان. واستخلفه على خطة حجابته، وارتحل السلطان من قسنطينة في جمادئ سنة سبع عشرة وسبعمائة يطوي المراحل. ولقيه في طريقه وفود العرب،

وانتهى إلى باجة فانفضت حاميتها إلى تونس.

وكان السلطان أبو يحيى اللحياني قد خرج عنها إلى قابس كما قدمناه، واستخلف عليها أبا الحسن بن وانودين، وبعث إليه بنهوض السلطان أبي بكر إلى تونس، وأنه محتاج إلى المدافعة، فاعتذر لهم اللحياني به، قبله من الأموال، وأطلق يدهم في الجيش والمال فأركبوا واستلحقوا ورتبوا الديوان وأخرجوا إبنه محمد، ويكنى أبا ضربة فأطلقوه من اعتقاله.

وبغتهم الخبر بإشراف السلطان أبي بكر على باجة، فخرجوا جميعاً من تونس. وخالفهم إلى السلطان مولاهم ابن غمر بن أبي الليل. كان مضطغناً مع الدولة متربصاً بها لما كان اللحياني يؤثر عليه أخاه حمزة، فلقي السلطان في دوين باجة، فأعطاه صفقته واستحثّه، ووصل إلى تونس، فنزل روض السنافرة من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة وسبعمائة. وخرج إليه الملأ وتردّدوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشأن أبي ضربة وأصحابه. وكان من خبرهم أن السلطان لما أغذ السير من باجة، بادر حمزة بن غمر إلى بطانة اللحياني وأوليائه بتونس فلقيهم وقد خرجوا عنها، فأشار عليهم ببيعة أبي ضربة بن السلطان اللحياني، ومزاحمة القوم به فبايعوه وزحفوا إلى لقاء السلطان.

ودس حمزة إلى أخيه مولاهم أن يزحف بالمعسكر فأجفل السلطان من مقامته من روض السناجرة لسبعة أيام من احتلاله قبل أن يستكمل البيعة وارتحل إلى قسنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه. وسرّح منصور بن مزني إلى ابن عمر ببجاية ودخل أبو ضربة بن اللحياني والموحدون إلى تونس منتصف شعبان من سنته. وبويع بالحضرة البيعة العامة وتلقب بالمستنصر. وأراد أهل تونس على إدارة سور بالأرباض يكون سياجاً عليها فأجابوه إلى ذلك وشرع فيه. وأرهقه العرب في مطالبهم واشتطّوا عليه في شروطهم إلى أن عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر إن شاء الله تعالى

.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر علي الحضرة وإيقاعه بأبي ضربة وفرار أبيه من طرابلس إلى المشرق:

لما قفل السلطان من تونس إلى قسنطينة بعث قائده محمد بن سيد الناس بين
يديه إلى بجاية، فارتاب ابن غمر بوصوله وتنكر له وشعر بذلك السلطان، وأغضى له عنها وطلبه في المدد، فاحتفل في الحشد والآلة والأبنية. وبعث إليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم: محمد بن سيد الناس، ومحمد بن الحكم، وظافر السنّان وأخوه من موالي الأمير أبي زكريا الأوسط، ومحمد المديوني ومحمد المجرسي ومحمد البطوني. وبعث له من فحول زناتة وعظمائهم عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، كان ارتحل إليه من الأندلس كما نذكر في خبره، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من أعياص بني عبد الواد في من كان معهم من قومهم وحاشيتهم.
وتوافوا بعساكرهم عند السلطان بقسنطينة فاعتزم على معاودة الزحف إلى تونس،
وكان قد اختبر أحوال أفريقية وأحسن في ارتيادها فخرج في صفر من سنة ثمان عشرة وسبعمائة، واستعمل على حجابته أبا عبد الله بن القالون، ويرادفه أبو الحسن بن عمر، ووافاه
با أربس وفد هوارة، وكبيرهم سليمان بن جامع، وأخبروه بأنّ أبا ضربة بن اللحياني أجفل من باجة بعد أن نزلها معتزماً على اللقاء، فارتحل مولانا السلطان مغذاً، ولقيه مولاهم ابن غمر فراجع الطاعة، وارتحلوا في أتباع أبي ضربة وجموعه حتى شارفوا على القيروان، فخرج إليه عاملها ومشيختها فألقوا إليه باليد وأعطوا الطاعة.
وارتحل السلطان راجعاً عن أتباع عدّوه إلى الحضرة وقد ترك بها أبو ضربة بن

اللحياني من بطانته محمد بن الغلاق ليمانع دونها، فأخرج الرماة إلى ساحتها، وقاتل العساكر ساعة من النهار. ثم اقتحموها عليه، واستبيح عامّة أرباضها وقتل ابن الغلاق ودخل السلطان إلى الحضرة في ربيع من سنته، فأقام خلالاً ما انعقدت العامّة. وقدم على

الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد. ورحل في أتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فأوقع بهم بمصبوح من جهات بلاد هوارة.

وقتل من مشيخة الموحدين أبو عبد الله بن الشهيد من أهل البيت الحفصي، وأبو

عبد الله بن ياسين. ومن طبقات الكتاب أبو الفضل البجائي وتقبّض على شيخ الدولة أبي محمد عبد الله بن يغمور. وقيد إلى السلطان فعفا عنه، ونوهه ليومه. ثم أعاده إلى خطته بعد ذلك. ورجع السلطان إلى تونس في رجب من سنته. وكان السلطان أبو عيسى بن اللحياني لما بلغه الخبر بنهوض السلطان إلى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة وسبعمائة، وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة ارتحل من مقامته بقابس إلى نواحي طرابلس. ثم بلغه رجوع السلطان إلى قسنطينة فأوطن طرابلس فبنى مقعداً لملكه بسور البلد مما يلي البحر سمّاه الطارمة، وبعث العمّال في الجهات لجباية الأموال. وبعث على جبال طرابلس أبا عبد الله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجواري من دباب فدوّخ البلاد وفتح المعاقل وجبى الأموال وانتهى إلى برقة. واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب ذئاب، ورجع إلى سلطانه بطرابلس. ووافاه الخبر بانهزام أبي ضربة إبنه فبعث حاجبه أبا زكريا بن يعقوب ووزيره أبا عبد الله بن ياسين بالأموال لاحتشاد العرب ففرّقوها في علاق وذئاب، وزحف أبو ضربة إلى القيروان. وبلغ الخبر إلى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان سنة ثمان عشرة وسبعمائة، فأجفلوا عن القيروان. ثم تذامروا وعقلوا رواحلهم مستميتين بزعمهم، حتى أطلت عليهم العساكر بمكان فجّ النعام، فانفضت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منهزمين، والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه. ولجأ أبو ضربة في ففه إلى المهديّة، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع بها إلى أن كان من شأنه ما نذكره.

وبلغ الخبر إلى أبيه بمكانه من طرابلس، فاضطرب معسكره وبعث إلى النصارى

في أسطول يحمله إلى الإسكندرية فوافوه بستة أساطيل فاحتمل أهله وولده، وركب

البحر ومعه حاجبه أبو زكريا بن يعقوب إلى الإسكندرية واستخلف على طرابلس أبا عبدالله بن أبي عمران من ذوي قرابته وصهره، فلم يزل بها إلى أن استدعاه الكعوب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد. وركب السلطان أبو يحيى بن اللحياني البحر إلى الإسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن قلاون من ملوك الترك بمصر والشام. واستقدمه إلى مصر فعظم من مقدمه واهتز للقائه ونوه من مجلسه وأسنى من جرايته وأقطاعه، إلى أن هلك سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. ورجع السلطان أبو بكر إلى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفج النعام، فدخلها في شوال من سنته. واستقامت أفريقية على طاعته، وانتظمت أمصارها وثغورها في دعوتها إلا المهدية وطرابلس كما ذكرناه، إلى أن كان ما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن غمر ببجاية وولاية الحاجب محمل بن القالون عليها ثم الإدالة منه بابن سيد الناس:

كان الحاجب ابن غمر لما استبدّ ببجاية سنة خمس عشرة وسبعمائة، وانتقل السلطان إلى قسنطينة ولم يراجعها بعد. ثم رجع من تونس ثانية حركاته سنة سبع عشرة وسبعمائة، صرف إليه منصور بن فضل وبعث في أثره قائده أبا عبد الله محمد بن حاجب أبيه أبي الحسن بن سيد الناس يهيىء قصوره ببجاية للتحول إليها، فرده ابن غمر وتنكر وطالبه السلطان في المدد فبادر به فأقطعه جانب الرضى. وعقد له على بجاية وقسنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل. فاستبد ابن غمر بالثغر وما إليه من الأعمال مقتصراً على ذكر السلطان في الخطبة، واسمه في السكّة. وأقام على ذلك إلى أن ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها، وبعث إليه بابن عمه محمد بن غمر فعقد أبو عبد الرحمن الحاجب على قسنطينة فمضى إليها، وهو في خلال ذلك كلّه يدافع عساكر زناتة عن بجاية.

وقد كان أبو حمّو صاحب تلمسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف، واسترجاعه

بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرّب العساكر لحصارها. وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة تكر يجهّز بها الكتائب لحصارها. ثم هلك أبو حمّو وولي إبنه أبو

تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة وسبعمائة فتنفّس فخنق الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان إلى تونس وفتحها. ثم خرج أبو تاشفين من تلمسان لتمهيد أعماله، وقتل محمد بن يوسف بمعقله من جبل وانشريش كما ذكرناه في أخبارهم، فارتحل من هنالك غازياً إلى بجاية، فأطل عليها في سنة تسع عشرة وسبعمائة، وبدا له من حصنها وكثرة مقاتلتها وامتناعها ما لم يحتسب، فانكفأ راجعاً إلى تلمسان، وأصاب ابن غمر المرض فبعث عن عليّ ابن عمّه من مكان عمله بقسنطينة، وعهد إليه بأمره والقيام بولاية بجاية إلى أن يصل أمر السلطان.

وهلك لأيام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة وسبعمائة، وقام علي بن عمر بأمر بجاية، واتصل الخبر بالسلطان فأهمه شأن الثغر. وطير ابن سيّد الناس إليه مع قهرمانة داره لتحصيل تراثه، والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة، وقدم به على السلطان واستقدم معه علي بن غمر، فأولاه السلطان من رضاه ما أحسب أمله. وأقام بالحضرة إلى أن كان منه خلاف مع ابن عمران. ثم راجع الطاعة وقد أحفظ السلطان بولاية عدوه. فلما عاد إلى تونس أوعز إلى مولاه نجاح وهلال بقتله فاغتالوه خارجا من بستانه فأشووه، وهلك من جراحته والله أعلم.

الخبر عن إمارة الأمير أبي عبد الله علي قسنطينة وأخيه الأمير أبي زكريا علي بجاية وتولية القالون علي حجابها:

لما هلك ابن غمر أهمّ السلطان شأن بجاية بما كانت عليه من شأن الحصار، ومطالبة بني عبد الواد لها فرأى أن يكثف الحامية بالثغور الغربية، وينزل بها أبناءه للمدافعة والحماية، فعقد على قسنطينة لإبنه الأمير أبي عبد الله وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكريا. وجعل حجابتها لأبي عبد الله بن القالون مستبداً عليهما لمكان صغرهما. وأكثف له الجند وأمره بالمقام ببجاية لممانعتها من العدو الملح على حصارها. وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين وسبعمائة في احتفال من العسكر والصحاب و الأبهة.

وأبقى خطة الحجابة خلواً ممن يقوم بها. وأبقى علي بن القالون. وبقي للتصرف في الأمور من رجالات السلطان أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقب بالمزوار. وكان مقدماً على بطانة السلطان المعروفين بالدخلة، وعلى الأشغال

الكاتب أبو القاسم بن عبد العزيز، وسنذكر أوليتهما بعد. وانصرف إلى بجاية رافلاً في حلل العز والتنويه إلى أن كان من أمره ما نذكرإن شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن استقدام ابن القالون والإدالة منه بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسنطينة.

لما انصرف أبو عبد الله بن يحيى بن القالون إلى بجاية، وخلا وجه السلطان فيه لبطانته عند ولايته بجاية، بثوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل. وتولى كبر ذلك المزوار ابن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال. وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلت فيه الظنّة. وعقد لمحمد بن سيّد الناس على بجاية، نقله إليها من عمله باجة، وكتب له عهده بخطه. واستقدم صاحبه محمد بن القالون فقدم، وقد تغير السلطان له ودخل ابن سيد الناس بجاية، وقام بأمر حصارها وحجابة أميرها إلى

أن استقدم للحجابة وكان من أمره ما نذكره. ومرّ ابن القالون بقسنطينة في طريقه إلى الحضرة فحدّثته نفسه بالامتناع بها، وداخل مشيختها في ذلك فأبوا عليه، فأشخصهم إلى الحضرة نكالاً بهم.

ونمي الخبر بذلك إلى السلطان فأسرّها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابة بقسنطينة لابن سيد الناس فاستعفى مشيختها من ذلك، واروه أن ابنّ الأمين قريبه وابن أخيه، وذكروه ثورة أبيه فأقصر عن ذلك، وصرف اعتزامه إلى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب، وكان من خبره أنه كان من موالي الأمير أبي زكرياء، وكان له في دولة إبنه السلطان أبي البقاء ظهور، وهو الذي زحف بالعسكر عندما استراب السلطان أبو البقاء بأخيه السلطان أبي بكر فأقام بباجة. وجاء المزدوري والعرب إلى تونس في مقدّمة ابن اللحياني، فزحف إليهم ففضّوه وتقبّضوا عليه كما ذكرنا ذلك كله. ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى وأعاده إلى مكانه من الدولة، وولاه قسنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشر وسبعمائة.

ثم غص به ابن غمر وأغرى به السلطان فأشخصه في سفين إلى الأندلس وأجاز

إلى المغرب. ونزل على السلطان أبي سعيد إلى أن بلغه الخبر بمهلك ابن غمر فكّر راجعاً إلى تونس، ولقاه السلطان مبرة وتكريماً. ووافق ذلك وصول الحاجب ابن القالون من بجاية، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابة إبنه بقسنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بأمرها، واستعمل ذويه وحاشيته في وجوه خدمتها وصرف من كان هنالك من

الخدّام أهل الحضرة إلى بلدهم. وكان بها أبو العباس بن ياسين متصرفاً بين يدي الأمير أبي عبد الله، والكاتب أبو زكريا بن الدبّاغ على أشغال الجباية، وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد الله فصرفهما القائد ظافر لحين وصوله، واستقلّ بأمره إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن القالون إليه على عينه:

كان محمد بن أبي عمران هذا من عقب أبي عمران موسى بن إبراهيم ابن الشيخ
أبي حفص، وهو الذي ولي أفريقية نائباً عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ أبي محمد عبد الواحد كتب له بها من مراكش لأوّل ولايته، فأقام والياً عليها ثمانية أشهر إلى أن قدم آخر سنة ثلاث وعشرين وستمائة، وأقام أبو عمران هذا في جملتهم إلى أن هلك ونشأ بنوه في ظلّ دولتهم إلى أن كان من عقبه أبو بكر والد محمد هذا، فكان له صيت وذكر. وكان السلطان أبو يحيى زكريا بن اللحياني قد رعى له ذمة قرابته، ووصله بصهر عقده لإبنه محمد على إبنته. واستخلفه على تونس عند خروجه عنها. ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفينة إلى الإسكندرية. وكان أبو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية، ونازله بها السلطان أبو بكر فامتنعت عليه، فأقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة. وأقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على السلطان، ويتقلب في نواحي أفريقية حتى عظم زبونه على السلطان ونزع إليه الكثير من الأعراب وكثرت جموعه، فاستقدم محمد بن أبي عمران من مكان ولايته بثغر طرابلس.

وزحف إلى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعبيته، فخرج السلطان أبو بكر من تونس في رمضان سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ولحق بقسنطينة، وصحبه إليها مولاهم ابن عمر. وكان الحاجب محمد بن يحيى بن القولون قد غصته البطانة والحاشية بالسعاية فيه عند

السلطان، وتبين له انحرافه عنه. وكان معز بن مطاعن الفزاري وزيره حمزة بن عمر وصاحب شوراه صديقاً لابن للقالون

ومخالصاً، فداخله في الأجلاب بابن عمران. فلما خرج السلطان أمام زحفه تخلف القالون بتونس، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران. ودخل محمد بن أبي عمران ثانية خروج السلطان، واستولى على الحضرة وأقام بها بقية سنته، وصدراً من الأخرى ولحق السلطان بقسنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه. وأزاح العلل واستكمل التعبية وزحف منها في صفر سنة إثنتين وعشرين وسبعمائة. وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب، فلقيهم السلطان أولى وثانية بالرجلة وأوقع بهم، وقتل شيخ الموحدين أبا عبد الله بن أبي بكر. وكان على مقدمتهم محمد بن منصور بن مزني وغيرهم، وأثخنت العساكر فيهم قتلاً وأسراً، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له. ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مقتل مولاهم افي عمر وأصحابه من الكعوب:

لما اتيح للسلطان من الظهور على ابن عمران وأتباعه والظفر بهم ما أتيح وصنع له

فيهم رغم أنف مولاهم ابن عمر، وظهرت من أصحابه كلمات أنبأت بفساد دخلتهم. ثم نمي للسلطان أن مولاهم داخل في الفتك به إبنه منصور وربيبه زعدان ومعدان ابني عبد الله بن أحمد بن كعب، وسليمان بن جامع من شيوخ هوارة. وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون بن عبد الله بن أحمد بعد أن داخلوه فيها فتنصح بها للسلطان. فلما عدوا على السلطان تقبض عليهم وبعثهم إلى تونس فاعتقلوا بها، ورجع هو إلى الحضرة فدخلها في جمادى من سنته. وجدد البيعة على الناس، وزحفت العرب في أتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه إطلاق مولاهم وأصحابه، فأنفذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم، وبعث بأشلائهم إلى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن، وصرخ في قومه وتدامروا أن يثيروا بصاحبهم، وأغذوا السير إلى الحضرة وابن أبي عمران معهم على حين افتراق العساكر وإزاحة السلطان.

وظنوا أنهم ينتهزون الفرصة فخرج السلطان عن تونس لأربعين يوماً من دخوله، ولحق بقسنطينة ودخل ابن أبي عمران إلى تونس فأقام بها ستة أشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تعبيته. ونهض من قسطنطينة وزحف إليه ابن أبي عمران وهزمهم ابن عمر في جموعهم، فأوقع السلطان بهم وأثخن فيهم وشرد هم في النواحي، وعاد إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة، ومضى حمزة لوجهه إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن واقعة رغيس مع ابن اللحياني وزناتة وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران:

لما انهزم حمزة بن عمر وابن أبي عمران عن تونس مرة بعد أخرى، ورأى حمزة

ابن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه إلى مكان عمله بطرابلس، وبعث إلى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدية فداخله في الصريخ بزناتة والوفود على سلطان بني عبد الواد، فرحل معه أبو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان وركبوه في الظفر ببجاية، وأن يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر إليه، فسرح معهم السلطان آلافاً من العساكر عقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتيمرزدكت، وكثير الحاشية والرجالات. وارتحلوا من تلمسان يغذون السير، وبلغ السلطان خبر فصولهم من تلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى إلى رغيس بين بونة وقسنطينة.

ولما أطلت عساكر زناتة والعرب اختل مصاف السلطان، وانهزمت المجنّبات وثبت

في القلب وصدق العزيمة واللقاء، فاختل مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وسبعمائة وامتلأت أيدي العساكر من أسلابهم من نساء زناتة، ومن عليهن السلطان وأطلقهن. ورجع أبو ضربة وموسى بن علي الكردي في فلهم إلى تلمسان، وعاد السلطان إلى حضرته لأيام من هزيمتهم. ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب وابن أبي عمران بنواحي

القيروان، فتخطى الحضرة إليهم ولقيهم بالشقّة، وأوقع بهم ورجع إلى تونس في شوّال من سنة أربع وعشرين . فاتبعه حمزة ومن معه إلى تونس عندما افترقت العساكر، ومعه إبراهيم بن الشهيد من البيت الحفصي.

وسبق إليهم بخبرهم عامر بن بوعلي بن كثير وسحيم بن.. فخرج للقائهم من يومه

في خص من الجنود بعد أن بعث عن عساكر باجة، وقائدها عبد الله العاقل مولاه فصحبه العرب بنواحي شادلة فقاتلوه صدرها، وحمي الوطيس، ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون، واشتدت الحرب. ثم كانت الهزيمة على العرب، واستبيحت حرماتهم وافترقت جموعهم، ورجع السلطان إلى البلد واستقر بالحضرة والله تعالى أعلم.

الخبر عن إجلاب حمزة بإبراهيم بن الشهيد وتغلبه علي الحضرة:

لما انهزم أبو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق أبو ضربة بتلمسان فهلك بها، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي، ويئس الكعوب من غلابه وتذامر والفتنته والأجلاب عليه، فوفد حمزة بن عمر على أبي تاشفين صريخاً، ومعه طالب بن مهلهل، قرنه في قومه، ومحمد بن مسكين شيخ بني حكيم من أولاد القوس وكلهم من سليم ومعهم الحاجب ابن القالون، فاستحثوا عساكره لصريخهم فكتب لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي وأعاده معهم. ونصب لهم لملك تونس من أعياص أبي حفص إبراهيم بن الشهيد منهم، وأبوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطّاب عبد الرحمن الذي نصّب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة، وقتله السلطان أبو البقاء خالد كما ذكرناه. وكان إبراهيم هذا قد لحق بالعرب ونصبوه للأمر، وأجلبوا به على تونس إثر واقعة رغيس. وبرزت إليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه، ولحق بتلمسان، وجاء هذا الوفد على أثره فنصبه السلطان أبو تاشفين لهم، واستعمل

على حجابته محمد بن يحيى بن القالون. وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن ير الكردي، وزحفوا إلى أفريقية. وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمدافعتهم في ذي القعدة من سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وانتهى إلى قسنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعبية فنزلوا بساحتها. وأقام موسى بن

عليّ على منازلتها بعساكر بني عبد الواد. وتقدم إبراهيم ابن الشهيد وحمزة بن عمر إلى تونس

فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستمكن منها، وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين. وثار عليه بعض ليالي رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان، وهو ابن أخي عبد الحق بن عثمان من أعياص بني مرين، وفيهم القائد بلاط من وجوه الترك المرتزقة بالحضرة، وابن جسار نقيب الشرفاء فاعتدوا واجتمعوا من جوف الليل، وهتفوا بدعوة السلطان. وطافوا بالقصبة فامتنعت عليهم فعمدوا إلى دار كشلي من الترك المرتزقة، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوها وامتنعت عليهم. ثم أعجلهم الصباح عن مرامهم وتتبعوا بالقتل، وفرغ من شأنهم وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلفوا عن ابن الشهيد لحصار قسنطينة أقام عليها أياماً. ثم أقلع عنها لخمس عشرة ليلة من منازلته، ورجع إلى صاحبه بتلمسان. وخرج السلطان من قسنطينة، فاستكمل الحشد والتعبية، ونهض إلى تونس فأجفل منها ابن الشهيد وابن القالون، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين وسبعمائة واستولى على دار ملكه، وأقام بها إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهزام عساكر السلطان عنها:

كان أبو تاشفين مند خلا له الجو، وتمكن في الأمر منه القدم يلح على بجاية بترديد البعوث ومطاولة الحصار، والسلطان أبو بكر يدفع لحمايتها من رجالات دولته وعظماء وزرائه الأول فالأوّل من أهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع إليه من ذلك. وسرب إليهم المدد من الأموال والأسلحة والجنود وتعهد إليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظره من وراء ذلك. وكان أبو تاشفين كلما أحس من السلطان أبي بكر بنهوض إلى المدافعة عنها، أو عزم على غزو كتائبه المجمّرة عليها رماه بشاغل يوهن عن عزمه ويمسك عنان بطشه. وكانت فتنة حمزة بن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما

كان يجبب العرب عن الطاعة، ويجمع الأحزاب للأجلاب على الحضرة، وينصّب الأعياص يطمعهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة. وكان ذلك ديدناً متصلاً أزمان تلك المدة.

ولما سرح أبو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين وسبعمائة مع إبراهيم ابن الشهيد، وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل أفريقية، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالاته، فنازل قسنطينة ثم أقلع عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. وشن الغارة في نواحيها، واكتسح الأموال ورجع إلى وادي بجاية فاختط مدينة بثيكلات على مرحلة منها، وعلى قارعة الطريق الشارع من الغرب إلى الشرق، وبما كانت بجاية زائغة عنه إلى البحر، فاختطوا تلك المدينة وشيدوها وجمعوا الأيدي عليها، وقسموها مسافات على جيوشهم، فاستتمت لأربعين يوماً وسموها تيمرزدكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة، حيث امتنع يغمراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في أخباره. وشحنوا هذه المدينة بالأقوات والمدد، وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل، وأخذت بمخنق البلد.

وقلق السلطان بمكانها فأوعز إلى قواد عساكره وأصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه أن ينفروا بعساكرهم إلى صاحب الثغر محمد بن سيد الناس، ويزحفوا معه إلى هذا البلد المخروب، ويستميتوا دون تخريبه فنهض ظافر الكبير من قسنطينة، وعبد الله العاقل من هوارة، وظافر السنان من بونة: وتوافوا ببجاية سنة سبع وعشرين وسبعمائة. وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من وراءه من عساكر بني عبد الواد. وخرجت العساكر جميعاً من بجاية تحت لواء ابن سيد الناس. وزحف إلى العدو بمخيمهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى أصحابه، فقتل ظافر الكبير ورجع ففهم إلى بجاية. وداخلت ابن سيد الناس فيهم الظنة بما كان يداخل موسى بن علي ابن زبون كل واحد منهما لصاحبه على سلطانه، فمنعهم من دخول البلد ليلتئذ وأسحروا قافلين إلى أعمالهم، وعقد السلطان على قسنطينة لأبي القاسم بن عبد العزيز أياماً. ثم استقدمه إلى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الأدوات

التي نحتاج إليها الحجابة. وعقد على حجابة إبنه الأمير أبي عبد الله بقسنطينة لمولاه ظافر السنان إلى أن كان من تحويل بنائه ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون:

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار، لا أدري من أوليته أكثر من أنه كردي من الأكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب، أيام أجلاهم الططرعن أوطانهم بشهرزور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستمائة: فمنهم من أقام بتونس ومنهم من تقدم إلى المغرب، فنزلوا على المرتضى بمراكش فأحسن جوارهم. وصار قوم منهم إلى بني مرين وآخرون إلى بني عبد الواد حسبما نذكر في أخبارهم.

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا إلى أن نشأ هو في دولة

الأمير أبي زكريا الأوسط صاحب الثغور الغربية، وتحت كنف من اصطناعه. واختلط بأبنائه وقدم في جملة إبنه السلطان أبي بكر إلى تونس مقدماً في بطانته ورئيساً على الحاشية المسمين بالدخلة، وكان يعرف لذلك بالمزوار. وكان شهماً وقوراً متديناً، وله في الدولة حظ من الظهور، وهو الذي تولى كبر السعاية في الحاجب ابن القالون، حتى ارتاب بمكانه. وفر إلى ابن أبي عمران سنة إحدى وعشرين وسبعمائة كما قدمناه. وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أي القاسم بن عبد العزيز لخلوه هو من الأدوات. وإنما كان شجاعاً بهمة.

ولم يزل على ذلك إلى أن هلك في شعبان سنة سبع وعشرين وسبعمائة، وأراد السلطان على الحجابة محمد بن خلدون جدنا الأقرب فأبى، ورغب في الإقالة فأجيب، جنوحاً لما كان بسبيله منذ سنين من الصاغية إلى الدين، والرغبة في السكون، والفرار من الرتب. وأشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقديمه سلفه مع سلف السلطان، وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمته في الاضطلاع بما يدفع إليه. أخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله، وصاحبنا محمد بن منصور بن مزني، قال لي: حضرت لاستدعاء جدكم إلى معسكر السلطان بباجة يوم مهلك المزوار، وأدخله السلطان إلى رواقه، وغاب ملياً ثم خرج وقد

استفاض بين البطانة والحاشية أنه دعي إلى الخطة فاستنكرها. وأقام السلطان يومئذ في خطة الحجابة الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم. واستقدم خالصته محمد بن حاجب أبيه أبي الحسين بن سيد الناس، فقدم في محرم فاتح ثمان

وعشرين وسبعمائة، وولاه حجابته فاضطلع لها، وجدد له العقد على بجاية وحجابة إبنه بها، فدفع إليه للنيابة عنه في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون، ومعه كاتبه أبو القاسم بن المريد. وجرى الحال على ذلك ببجاية، وعساكر زناتة تجوس خلالها ومعاقلهم تأخذ بمخنقها. وقدم القالون دوين مقدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزيله علي بن أحمد سيد الزواودة، وطمع في عوده إلى الخطة.

وكان من خبره أنه لما تخلف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عمران رأى ركوب السفين إلى الأندلس، فأعجلهم السلطان عن ذلك، وخرج مع ابن أبي عمران فأجلب معه على الحضرة مراراً، ولحق بتلمسان. ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الأفاعيل، ثم انحل أمر ابن الشهيد، ولحق هو بالزواودة من رياح. ونزل على علي بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فأجاره وأنزله بطولقة من بلاد الزاب. وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الأمان حتى أسعف ووفد على الحضرة مع أخيه موسى بن أحمد، وفي نفس القالون طمع في الخطة. وسبقه ابن سيد الناس إلى السلطان فاستقل بها. وجاء القالون من بعد فأوصله السلطان إلى نفسه واعتذر إليه ووعده، وعقد له على قفصة فسار إليها وصحب موالي السلطان من المعلوجي بشير وفارح، وأوعز ابن سيد الناس إلى مشيخة قفصة أن يتقبضوا على حاميته ليتمكن الموالي منه. فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتزقة كان في جملته منذ أيام حجابته وكان يستظهر بمكانه. فلما دخل إلى البلد قتل في سككها فكانت لمقتله هيعة تسامع الناس لغطها من خارج البلد. وبرز القالون من فسطاطه وقد جث للرعب فتقدم إليه الموالي الذين جاءوا معه، وتناولوه طعناً بالخناجر إلى أن هلك، والله وارث الأرض ومن عليها.

الخبر عن ولاية الفضل علي بونة:

كان السلطان قد عقد على بونة منذ أول دولته لمولاه مسرور المعلوجي فقام واضطلع

بولايتها، وكان من الغلظة ومراس الحروب بمكان. وكان لذلك غشوماً جباراً. وخرج إلى ولهاصة سنة... فاضطهدهم، وذهبوا إلى مدافعته عن أموالهم فحاربهم. وبلغ خبر مهلكه إلى السلطان فعقد على بونة لإبنه أبي العباس الفضل، وبعثه إليها. وولى على حجابته وقيادة عسكره ظافراً السنان من مواليه المعلوجين فقام بما دفع إليه من ذلك أحسن قيام إلى أن كان من أمرهم ما نذكره.

الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مهلك الأمير أبي فارس أخي السلطان:

كان السلطان أبو بكر لما قدم إلى تونس قدم معه إخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز

وعبد الرحمن، وهلك عبد الرحمن منهم، وبقي الآخران، وكانا في ظل ظليل من النعمة، وحط كبير من المساهمة في الجاه. وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوق إلى نيل المرتبة وتربص بالدولة. وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بني مرين وأعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً إليها من الأندلس، فنزل على ابن عمر ببجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشرة وسبعمائة. ثم لحق بالسلطان فلقاه مبرة ورحباً، ووفر حظه وحط حاشيته من الجرايات والأقطاع. وجعل له أن يستركب ويستلحق، وكان يستظهر به فتي مواقف حروبه، ويتجمل في المشاهد بمكانه من سريره بما كان سيداً في قومه. وكان قد انعقدت له بيعة على أهل وطنه، وكانت فيه غلظة وأنفة وإباء. وغداً في بعض أيامه على الحاجب ابن سيد الناس فتلقاه الإذن بالغدر فذهب مغاضباً، ومر بدار الأمير أبي فارس فحمله على ذات صدره من الخروج والثورة، وخرجاً من يومهما في ربيع سنة سبع وعشرين وسبعمائة، ومروا ببعض أحياء العرب فاعترضهما أمير الحي فعرض عليهما النزول: فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه إلى أن لحق بتلمسان، وأما الأمير أبو فارس فأجاب ونزل، وطير بالخبر إلى السلطان

فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صنائعه وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى، وصبحوه في الحي وأحاطوا ببيت نزله فامتنع من الإلقاء باليد، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قعصاً بالرماح، وجاءوا بشلوه إلى الحضرة فدفن بها.

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين خير نزل، ورغبه فيما كان بسبيله من

مطالبة الدولة الحفصية وتدويخ ممالكها، ووفد على أثره حمزة بن عمر ورجالات سليم صريخا على عادتهم. فأجاب أبو تاشفين صريخهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره أنه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس. فلما انهزم أبو ضربة وانحل أمره استقدمه العرب وأجلبوا به على الحضرة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة فملكها ستة أشهر. ثم أجفل عنها عند رجوع السلطان إليها، ولحق بطرابلس إلى أن انتقض عليه أهلها سنة أربع وعشرين وسبعمائة، وثاروا به وأخرجوه فلحق بالعرب وأجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها.

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جواره كرامة وجراية، إلى أن

وصل هذا الوفد إليه سنة تسع وعشرين وسبعمائة، فنصبه للأمر بأفريقية. وأمدهم بالعساكر من زناتة، عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطانته وصنائع أبيه. ورجع معهم عبد الحق بن عثمان بمن في جملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته. وكانوا أحلاس حرب وفتيان كريهة، فنهضوا جميعاً إلى تونس فزحف السلطان للقائهم، وتراءى الجمعان بالرياس من نواحي بلاد هوارة سنة تسع وعشرين وسبعمائة فدارت الحرب واختل مصاف السلطان، وفلت جموعه. واحيط به فأفلت بعد عصب الريق، وأصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها، وقتل كثير من بطانته وحاشيته، وكان من أشهرهم محمد المديوني. وانتهب المعسكر وتقبض على أحمد وعمر إبني السلطان فاحتملا إلى تلمسان، حتى أطلقهما أبو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتحه فيها أبو تاشفين، وجنح إلى السلم وأطلق الإبنين. ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك. وتقدم ابن أبي عمران بعد

الواقعة إلى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين وسبعمائة. واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد، وحجب عليه التصرف

في شيء من أمره، ثم عاد يحيى بن موسى إلى سلطانه. ونهض السلطان أبو بكر من قسنطينة إلى تونس بعد أن استكمل الحشد والتعبية، فأجفل ابن أبي عمران عنها، ودخل إليها السلطان في رجب من سنته إلى أن كان ما نذكره.

الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة علي بني عبد الواد وما تبع ذلك من المصاهرة:

كان السلطان أبو بكر لما خلمى من واقعة الرياس نجا إلى بونة، وركب منها البحر

إلى بجاية، وقد ضاق ذرعه بإلحاح عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث إلى وطنه، فأعمل نظره في الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة، مع ما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحن، ليبعث بذلك دواعيهم على مطالبة بني عبد الواد فيأخذ بحجزتهم عنه. ثم عين للوفادة عليه إبنه الأمير أبا زكريا، وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين لساناً لخطابه ونجياً لشوراه. وركب البحر من بجاية فنزلوا بمرسى غساسة، واهتز صاحب المغرب لقدومه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والإجارة، وأجاب دعاءهم إلى محاربة عدوهم وعدوه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعد ضربوه لذلك. وكان السلطان أبو سعيد قد بعث سنة إحدى وعشرين وسبعمائة يحيى الرنداجي قائد الأسطول بسبتة إلى مولانا السلطان أبي بكر في الإصهار على إحدى كرائمه، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عمران. فلما وفد عليه ابن السلطان وأولياؤه أعاد الحديث في ذلك، وعين للنيابة عنه في الخطبة من السلطان إبراهيم بن أبي حاتم العزفي، وصرفه مع العدو فوافوا السلطان بتونس آخر سنة ثلاثين وسبعمائة، وقد طرد عدوه وشفى نفسه فجاءوه بامنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان. وخطب منه إبراهيم للأمير أبي الحسن بن السلطان

أبي سعيد، فعقد على إبنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكريا السفير إليهم، وزفها إليه في أساطيله سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة. وأنفذ

لزفافها من مشيخة الموحل ين أبو القاسم بن عتو، ومحمد بن سليمان الناسك، وقد مرّ ذكره فنزلت على محل وثير من الغبطة والعز وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد أعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين، ولم يزل مذكوراً على الأيام.

الخبر عن حركة السلطان إلى المغرب وفرار بني عبد الواد وتخريب تيمرزدكت:

كان مهلك السلطان أبي سعيد على تفيئة ما قدّمناه من الأخبار آخر سنة إحدى وثلاثين وسبعمائة، وولي السلطان أبو الحسن من بعده فبعث إلى ابن تاشفين يخاطبه في الغض عن عنان عيثه في بلاد الموحدين وطغيانه عليها، فلج واستكبر وأساء الردّ، فنهد إليه في سبيل الصريخ لهم سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة وطوى البلاد طيا إلى تلمسان، وأفرجت عساكرهم عن بجاية إلى سلطانهم. وتقدم السلطان عن تلمسان لمشارفة أحوال بجاية والأخذ بحجرة العدّو المحاصر لها. وبعث عسكراً من قومه مدداً لها، عقد عليهم لمحمد البطوي، وأركبهم أساطيله من سواحل وهران فدخلوها وقوبلوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية. واستنهض السلطان أبو الحسن السلطان أبا بكر لحصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين إبنه الأمير أبي زكريا، فشرع السلطان في جهاز حركته وإزاحة علله. وأقام السلطان أبو الحسن بتاسالة في انتظاره شهراً حتى انصرم فصل الشتاء.

وبلغه بمعسكره من تاسالة أن أخاه السلطان أبا علي صاحب سجلماسة انتقض وخرج إلى درعة، فقتل عامله بها بعد أنّ كان داخله وعقد له بعد أبيه على المهادنة والتجافي عنه بمكانه من سجلماسة. فلما بلغه هذا الخبر كّر راجعاً إلى المغرب لإصلاح شأنه. وكان السلطان أبو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فانتهى إلى بجاية وبعث مقدماته إلى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها. ثم زحف بجملته إلى تيمرزدكت، وفرت عنها الكتائب المجمرة بها فأناخ عليها حتى خربها وانتهب أموالها وأسلحتها. ونسف آثارها وقفل عنها إلى بلد المسيلة أختها في الغي، وموطن أولاد سباع بن يحيى من الزواودة، كانت

مشيختهم سليمان ويحيى إبنا علي بن سباع وعثمان بن سبّاع عمهم وابنه سعيد، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم، ونهجوا للعساكر السبيل إلى وطىء بلاد الموحدين والعيث فيها ومجاذبة حبلها.

وأقطعهم أبو تاشفين بلد المسيلة وجبل متنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من أعمالها، فلما شرّد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع أعمال بجاية إليها سار في جموعه إلى هذا الوطن ليسترجع أعماله ويجدد بها دعوته. وزاد في إغرائه بذلك علي بن أحمد كبير أولاد محمد أقتال أولاد سبّاع هؤلاء ونظرائهم وأهل أوتارهم ودخولهم، فارتحل غازياً إلى المسيلة حتى المسيلة حتى نزلها، واصطلم نعمها وخرّب أسوارها، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني وأجلابه على تونس، وكان من خبره أنه قدم من المشرق بعد مهلك أبيه السلطان أبي يحيى زكريا سنة تسع وعشرين وسبعمائة، فنزل على دباب وبايع له عبد الملك بن مكي رئيس المشيخة بقابس، وتسامع به الناس وأفريقية شاغرة من الحامية والعساكر لنهوضهم مع السلطان، فاغتنم حمزة بن عمر الفرصة، واستقدمه فبايع له ورحل به إلى الحضرة فنزل بساحتها، ودخل عبد الواحد بن اللحياني وحاجبه ابن مكي إلى البلد فأقاموا بها ريثما بلغ الخبر إلى السلطان، فقفل إلى الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك، فأجفل ابن اللحياني وجموعه من تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم، ودخل البطوي إليها وجاء السلطان على أثره أيام عيد الفطر سنة إثنتين وثلاثين وسبعمائة.

الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن الحكيم من بعده:

قد قدمنا أولية هذا الرجل، وأن أباه أبا الحسين كان حاجباً للأمير أبي زكريا ببجاية. ولما هلك سنة تسعين وستمائة خلف إبنه محمداً هذا في كفالة السلطان ومرعى

نعمته، فاشتمل قصرهم عليه وأواه إلى حجره وأرضعه مع الكثير من بنيه، ونشأ في

كنفه. وكان الحجاب للدولة من بعد أبيه مثل ابن أبي حيّ والرخامي صنائع لأبيه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه في التجلّة على أنفسهم. ولم يدرك في سنّ الرجولة والسعي في المجد إلا أيام ابن غمر آخرهم، فكان له منه مكان. حتى إذا ارتحل السلطان أبو يحيى إلى قسنطينة لطلب تونس، وجهز له ابن غمر الآلات والعساكر، وأقام له الحجاب والوزراء والقواد كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره. وكان سفيراً للسلطان فكانت له عنده أثرة واختصاص، وعقد له من بعد مهلك ابن غمر على بجاية لما عزل عنها القالون كما قدّمناه، فاستبد بها على السلطان وحماها دون عساكر زناتة، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كلّه مقامات مذكورة.

وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن علي مداخلة في زبون كل واحد منهما بمكان صاحبه على سلطانه وفطن لأمرهما. فأما أبو تاشفين فنكب موسى بن علي كما نذكره في أخباره، وأما السلطان أبو بكر فأغفى لإبن سيّد الناس عنها. ثم استدعاه وقلّده حجابته سنة سبع وعشرين وسبعمائة كما قدّمناه، واستخلف على مكانه ببجاية محمد بن فرحون وأحمد بن المزيد للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الأمير أبي زكريا ابن السلطان. وقدم هو على السلطان وأسكنه بقصور ملكه، وفوّض إليه أمور سلطانه تفويض الاستقلال فجرى في طلق الاستبداد عليه وأرخى له السلطان حبل الإمهال، واعتد عليه فلتات الدالة مع ما كانت الظنون ترجم فيه بالمداهنة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم. وأمهله السلطان لمكانه من حماية الثغر ببجاية والاستقلال به دونه، حتى إذا تجلت غيابتهم وأطل أبو الحسن عليهم من مرقبه، ونهض السلطان أبو بكر إلى بجاية وخرب تيمرزدكت، فأغراه البطانة حينئذ بالحاجب محمد بن سيد الناس.

وتنبه له السلطان فأحفظه له استبداده، وتقبض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة واعتقله. ثم امتحنه بأنواع العذاب لاستخراج المال معه فلم ينبس بقطرة، فما زال يستغيث ويتوسّل

بسوابقه من الرضاع والمربى، وسوابق أبيه عند سلفه حتى لذعه العذاب فأفحش ونال من السلطان وأقذع، فقتل

شدخاً بالعصي، وجرّشلوه فأحرق خارج الحضرة وعفا رسمه كأن لم يكن، وإلى الله عاقبة الأمور.

ولما تقبّض السلطان على ابن سيّد الناس ومحا أثر استبداده قلد حجابته الكاتب أبا القاسم بن عبد العزيز، وقد كان قدم من الحمة عند مبايعة ابن مكي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه إلى تيمرزدكت فلم يزل معه إلى أن دخل حضرته، وتقبض على ابن سيد الناس فولّاه الحجابة وكان مضغفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لضيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوض له فيما وراء الحضرة، وهو محمد بن علي محمد بن حمزة بن إبراهيم أحمد اللخمي، ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبتة. وجده أحمد هو أبو العباس المذكور بالعلم والدين والد أبي القاسم المستقل برياسة سبتة بعد الموحدين، وكان من خبر أوليته فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفيين بسبتة والمنقضي أمرهم بها بانقضاء رياسته. وحدثني بها أيضا حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب، وحدّثني بها أيضاً الثقة عن إبراهيم ابن عمهما أبي حاتم قالوا جميعاً: إن أبا القاسم العزفي كان له أخ يسمى إبراهيم، وكان مسرفاً على نفسه وأصاب دما في سبتة، وحلف أخوه أبو القاسم ليقتدن منه، ففر ولحق بديار المشرق، هذا آخر خبرهم. وإن محمداً هذا من بنيه.

وبقية الخبر عن أهل هذا البيت من سواهم أن إبراهيم أنجب محمداً وأنجب محمد حمزة، ثم أنجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطب واسقر في إيالة السلطان أبي زكريا بالثغور الغربية. وأصاب السلطان وجع في بعض أزمانه وأعيى دواؤه فجمع له الأطباء وكان فيهم علي هذا فحدس على المرض وأحسن المداواة، فوقع من السلطان أحسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصته وأهل خلوته، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه أحد فيه. وكان يدعى في الدولة بالحكيم، وبه عرف إبنه من بعده وأصهر إلى إحدى بيوت قسنطينة فزوجوه وخلط أهله بحرم السلطان، وولد له محمد إبنه بقصره، ورضع مع الأمير أبي بكر إبنه ونشأ في حجر الدولة وكفالتها وعلى أحسن الوجوه من

ترتيبها. ولما بلغ أشده صرف إليه رئيس الدولة يعقوب بن غمر وجه إقباله واختصاصه، فكان له منه مكان أكسبه ترشيحاً للرياسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه.

لما نهض السلطان أبو يحيى إلى أفريقية قلده قيادة بعض العساكر، ثم عقد له بعد مهلك ابن غمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس عنها إلى بجاية. وكان عمل باجة من أعظم الولايات في الدولة فاضطلع به. ثم لما أمر السلطان بطانته في نكبة ابن سيد الناس دفعه لذلك، فولي القبض عليه وكمن له في عصبة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية. واستدعى ابن سيد الناس إلى السلطان ويمر بمكانهم، فلما انتهى إليهم توثبوا به وشدوه كتافاً وتلوه إلى محبسه بالبرج المعد لقثاف مثله بالقصبة. وتولى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه إلى أن هلك، وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه، وفوض إليه فيما وراء الحضرة كما قلناه. وجعل تنفيذ الأموال والكتاب على الأوامر لابن عبد العزيز، فكان عدله في حمل الدولة، إلا أن ابن الحكيم كان أشفّ فيه لما كان إليه من التدبير في الحرب والرياسة على الكتابة، لرياسة السيف على القلم فاضطلع برياسته وأحسن الغناء والولاية، إلى أن كان من خبره ما نذكر.

الخبر عن فتح فقصة وولاية الأمير أبي العباس عليها:

كان أهل الجريد منذ تقلّص عنهم ظل الدولة عند إنقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما إليها، وصار أمرهم إلى الشورى بين المشيخة إلا في الأحايين يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين، فقد جاء عبد المؤمن إلى أفريقية وبنو الرند على قفصة وقسنطينة، وابن واطاس على توزر وابن مطروح على طرابلس فأملوا مثلها، وشغل مولانا السلطان أبا بكر عنهم بعد استقلاله بالأمر وانفراده بالدعوة الحفصية شأن الفتنة مع آل يغمراسن بن زيان وأجلاب عساكرهم مع حمزة

ابن عمر على أوطانه. حتى إذا أخذ السلطان أبو الحسن بحجرتهم وأطل عليهم من مراقبه فعادوا إلى أوكارهم بعد أن أسفوا، وتنفس مخنق الثغور الغربية من حصارهم، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم. وسكن اضطراب الخوارج على الدولة وخفتت أصوات المرجفين في ممالكها، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحو الشقاق من سائر أعماله، وسمت همّته في تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ أهلها من أيدي الذئاب الغاوية والكلاب العادية زعماء أمصارها وأعراب فلاتها، فنهض إلى قفصة سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. وقد كان استبد بشوراها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها، فنازلها أياماً والعساكر تلجّ عليها بأنواع القتال، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا. ثم جمع الأيدي حتى قطع نخيلهم وإقلاع شجرائهم فنادوا بالأمان فأمنهم. وخرج إليه ابن عبد الجليل في ربيع الاخر من سنته فأشخصه إلى الحضرة وأنزله بها ورجالات من قومه بني العابد. وفر

سائرهم إلى قابس فنزل في جوار ابن مكي ودخل أهل البلد في حكمه، وتفيأوا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فأحسن التجاوز عنهم، وبط المعدلة فيهم. وأحسن أمل ذوي الحاجات منهم بالإسهام والإقطاع وتجديد ما بأيديهم من المكتوبات السلطانية. ثم آثرهم بسكنى بلده المخصوص بعدئذ بعهده الأمير أبي العباس، وأنزله بين ظهرانيهم وأوصاه بهم، وعقد له على قسطيلية وما إليها. وجعل معه على حجابته أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين، وقفل إلى حضرته فدخلها في رمضان من سنته والله أعلم.

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء خالد علي سوسة

ثم إضافة المهدية إليها:

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس، وولى محمد بن فرحون على حجابة

إبنه الأمير أبي زكريا، وقارن ذلك ما نزل بيغمراسن من عدوّهم وتفرغ السلطان

للنظر في ملكه وتمهيد أحواله، وأن يرسي قواعد أعماله بنجباء أبنائه: فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لوليديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الأمر، وأنزلهما بسوسة، وأنزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت أهل الأندلس القادمين في الجالية، ورياسة سلفهم بمرسية معروفة في أخبار الطوائف. وكان أخوه أبو القاسم صاحب الأشغال بالحضرة فأقاما كذلك. ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه، وأن يولّي من شاء على حجابته. وأنزل ابن فرحون مع هذين الأميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين وسبعمائة. ثم استدعاه الأمير أبو زكريا فرجع إليه وأقام هذان الأميران بسوسة، حتى إذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الركراك من المهدية كان إنزاله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من أهل رجيس، ويعرف بابن عبد الغفّار واتخذها حسناً لنفسه، وأنزل بها قريبه هذا وأشحنها بالعدد والأقوات فلم يغن عنه. ولما هلك استنزل ابن الركراك وبعث السلطان عليهما إبنه الأمير أبا البقاء، وأفرد الأمير أبا فارس بولاية سوسة فأقاما كذلك إلى أن كان من خبر مهلكهما ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة من الأبناء وولاية بنيه من بعده:

كان الأمير أبو عبد الله مخصوصاً من أبيه من بين ولده بالأثرة والعناية قد صرف إليه إقباله وألقى عليه محبته لما كان يتوسم في شواهده من الترشيح، وما تحلّى به من خلال الملك. وكان الناس يعرفون له حق ذلك. وذلك أن ابن عمر كان مستبداً بالثغور الغربية بجاية وقسنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها. فلما هلك ابن عمر سمه تسع عشرة وسبعمائة كما قدمناه صرف السلطان نظره إلى ثغوره، فعقد

على بجاية لإبنه الأمير أبى زكريا، وعقد على حجابته لابن القالون وسرّحه معه لمدافعة العدؤ، وعقد على قسنطينة لابنه الأمير أبي عبد الله ومعه أحمد بن ياسين. وخرجوا جميعاً من تونس سنه عشرين وسبعمائة ونزل كل بعمله. وقدم ظافر الكبير من الغرب فولاّه السلطان حجابة إبنه بقسنطينة وأنزله بها إلى أن هلك سنة سبع وعشرين وسبعمائة على تيمرزدكت كما ذكرناه، فجا بحجابته من تونس أبو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فأقام أربعين يوماً.

ثم رجع إلى الحضرة وأضاف السلطان حجابة قسنطينة لابن سيد الناس حجابة بجاية، وبعث إليها نائباً عنه مولاه هلالاً النازع إليه عن موسى بن علي قائد بنى عبد الواد، فقام بحضرة الأمير أبي عبد الله إلى أن كانت نكبة ابن سيد الناس عندما بلغ الأمير أبو عبد الله أشده وجرى في طلق استبداده ففوّض له في عمله السلطان وأطلق ص عنانه، وكان يؤامره في شأنه ويناجيه في خلوته. وأنزل معه بقسنطينة مولاه نبيلاً من المعلوجين يقيم له رسم الحجابة. ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة أربع وثلاثين وسبعمائة لقيادة الأعنة والحرب، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها. ثم رجع وقام نبيل بحجابته كما كان. ودفع ليعيش بن... من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الأوطان، فقاسمه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة. واستمرت حال الأمير أبي عبدالله على ذلك، والأيام تزيد ظهوراً ومساعيه الملوكية تكسبه جلالاً وترشيحاً إلى أن اغتبط دون غايته، وإعتاقه الأجل عن مداه فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين وسبعمائة، وقام بأمره من بعده كبير بنيه الأمير زيد عبد الرحمن، فعقد له السلطان أبو بكر على عمل أبيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره، واستمرّت حالهم على ذلك إلى آخر الدولة، وكان من أمرهم ما نذكره بعد، والله تعالى أعلم.

الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم أجلاب بنيه علي الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وز بن همر وما قارن ذلك من الأحد اث:

لما ملك السلطان أبو الحسن تلمسان وأعمالها وقطع دابر آل زيّان، واجتثّ أصلهم

وجمع كملة زناتة على طاعته، واستتبعهم عصبابة تحت لوائه. ودانت القبائل بالانقياد له وتخبت القلوب لرعبه، ووفد عليه حمزة بن عمر يرغبه في ممالك أفريقية، ويستحثّه لها ديدنه مع أبي تاشفين من قبله فكف بالباس من غلوائه، وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه. ونهج له بالشفاعة سبيلاً إلى معاودة طاعته والعمل بمرضاته، فرجع حمزة إلى السلطان عائذاً بحلمه متوسلاً بشفاعة صاحبه راغباً بإذعانه، وقطع مواد الخلاف من العرب باستقامته فتلقّاه السلطان بالقبول واسعاف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة. ولم يزل حمزة بن عمر من لدن رضى مولانا السلطان عنه وإقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطوية منادياً بمظاهرة محمد بن الحكيم قائد حربه، وشياب دولته على تدويخ أفريقية وتمهيد أعمالها وحسم أدواء الفساد منها.

وأخذ الصدقات من جميع ظواعن البدو الناجعة في أقطارها، وجميع الطوائف المتعاصين بالثغور على إلقاء اليد للطاعة والكفّ عن أموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار في ذلك مهّدت من الدولة وأرغمت أنوف المتعاطين للاستبداد في القاصية، حتى استقام الأمر وانمحى أثر الشقاق فاستولى على المهدية سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وغلب عليها ابن عبد الغفار المنتزي بها من أهل رجيس واستولى على تبسة وتقبض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها، وأودعه سجن المهدية إلى أن أطلق

بعد نكبته، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن يملول على طاعته المضعفة. واسترهن ولده، ونازل بسكرة غير مرّة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني بذمّة عليه يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه. ويعطيه الجباية عن يد مع ما كان له من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه.

وزحف إلى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تقرت، واستولى على أموالها وذخيرتها، وسار

إلى جبل أوراس فافتتح الكثير من معاقله. وعصفت ريح الدولة بأهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض. وفي أثناء ذلك هلك حمزة بن عمر سنة إثنتين وأربعين وسبعمائة على يد أبي عون علي بن كبير أحد بطون بني كعب بطعنة طعنه بها غيلة فأشواه وقام بأمره من بعده بنوه، وكبيرهم يومئذ عمر، وداخلتهم الظنة ان قتله بإملاء الدولة فاعصوصبوا وتآمروا واستجاشوا بأقتالهم أولاد مهلهل فجيّشوا معهم وزحف إليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان من زناتة والجند ففلوه واستلحموا كثيراً من وجوههم.

ورجع إلى الحفرة فتحصن بها واتبعوه فنزلوا بساحتها سنة ثلاثين وسبعمائة وقاتلوا العساكر سبع ليال.

ثم اختلفوا ونزع طالب بن مهلهل في قومه إلى طاعة السلطان فأجفلوا، وخرج السلطان على تفيئة ذلك في جمادى من سنته في عساكره وأحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان. ورجع إلى حضرته آخر رمضان من سنته. وذهبوا مفلولين إلى القفر ومروا في طريقهم بالأمير أبي العباس بقفصة فرغبوه في الخلاف على أبيه، وأن يجلبوا به على الحضرة فأملى لهم في ذلك حتى ظفر بمعز بن مطاعن وزير حمزة وكان رأس النفاق والغواية فتقبض عليه وقتله، وبعث برأسه إلى الحضرة فنصب بها. ووقع ذلك من مولانا السلطان أحسن المواقع. ثم وفد بعدها على الحضرة فبايع له بالعهد في آخر سنته في محفل أشهده الملأ من الخاصة والكافة بإيوان ملكه. وكان يوماً مشهوداً قرىء فيه سجل العهد

على الكافة، وانفضوا منه داعين للسلطان. وراجع بنو حمزة الطاعة من بعدها واستقاموا عليها إلى أن كان من أمرهم ما نذكرهإن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعده

وما كان علي تفيئة ذلك من نكبة ابن الحكيم:

هذا الرجل اسمه أحمد بن إسمعيل بن عبد العزيز الغساني وكنيته أبو القاسم، وأصل سلفه من الأندلس انتقلوا إلى مراكش واستخدموا بها للموحدين، واستقر أبوه إسمعيل بتونس. ونشا أبو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدباغ ولما دخل السلطان أبو البقاء خالد إلى تونس، ونكب ابن الدباغ لجأ ابن عبد العزيز إلى الحاجب ابن غمر، وخرج معه من تونس إلى قسنطينة واستقر ظافر الكبير هنالك فاستخدمه إلى أن غرب إلى الأندلس كما قدمناه. ثم استعمله ابن غمر على الأشغال بقسنطينة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة فقام بها وتعلق بخدمة القالون بعد استبداد ابن غمر ببجاية. فلما وصل السلطان أبو بكر إلى تونس سنة ثمان عشرة وسبعمائة استقدمه القالون واستعمله على أشغال تونس. ثم كانت سعايته في القالون مع المزوار بن عبد العزيز إلى أن فر القالون سنة إحدى وعشرين وسبعمائة وولي الحجابة المزوار بن عبد العزيز، وكان أبو القاسم بن عبد العزيز هذا رديفه لضعف أدواته.

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي أبو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم إلى أن قدم ابن سيد الناس من بجاية، وتقلّد الحجابة كما قدمناه فغصّ بمكان ابن عبد العزيز هذا وأشخصه عن الحضرة وولّاه أعمال الحامة. ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد بن اللحياني بجهات قابس فلحق بالسلطان في حركته إلى تيمرزدكت، وأقام في جملة السلطان إلى أن نكب ابن سيد الناس، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرنا ذلك كله من قبل، إلى أن هلك فاتح سنة أربع وأربعين وسبعمائة فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد عبد الله بن تافراكين.

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن آيت الخمسين. وولي
عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على فاس أول ما ملكها الموحدون سنة أربعين

وخمسائة إلى أن فتحوا مراكش، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها أيام مغيبه على الإمارة والصلاة. ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا أومغار أخي الإمام المهدي سنة إحدى وخمسين كان أول ثورتهم أن اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه للصلاة فقتلوه، وفضحهم الصبح واستلحمهم العامّة، ثم كان إبنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيختهم. ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لأخيه السيد أبي إسحق أنزل معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن وانودين، وكان عبد الله المقدم فيهم. وجاء إبنه عمر من بعده متقبلاً مذهبه مرموقاً تجلته. ولما ولي السيد أبو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على أفريقية ولاّه قابس وأعمالها إلى أن استنزله عنها يحيى بن غانية سنة إثنتين وتسعين وخمسمائة.

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين، خالف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون فاغتالوه في طريقه إلى المسجد عند الأذان بالصبح، بما كان محافظاً على شهود الجماعات. ورعاه له المأمون في أخيه عبد الحق وبنيه أحمد ومحمد وعمر، فلما استلحم الموحّدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق موريا بالحج، ونزل على السلطان المستنصر فأنزله بمكانه من الحضرة وسرحه بعض الأحايين إلى الحافة لحسم الداء فيها. وقد كان توقّع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها وقتل أهل الخلاف وحسم العلل. وولاّه السلطان أبو إسحق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها. ولما ولي الدعي ابن أبي عمارة سرحه في
عسكر من الموحدين لقهر العرب وكفّ عدوانهم فأثخن فيهم ما شاء. ولم يزله معروفاً بالرياسة مرموقاً بالتجلة إلى أن هلك. وكان بنو أخيه عبد العزيز وهم: أحمد ومحمد وعمر جاءوا على أثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل، وغذوا بلبان النعمة والجاه فيها. وكان أحمد كبيرهم. وولاّه السلطان أبو حفص على قفصة ثم على المهديّة ثم استعفى من الولاية فعوفي.

وكان السلطان أبو عصيدة يستخلفه على الحضرة إذا خرج منها على ما كان
لأوّله،
إلى أن هلك لأول الماية الثامنة سنة ثلاث. ونشأ ابناه أبو محمد عبد الله وأيو
العبّاس

أحمد في حجر الدولة وجو عنايتها. وأصهر عبد الله منهما إلى أبي يعقوب بن يزدوتن شيخ الدولة في إبنته فعقد له عليها. وأصهر من بعده أخوه أحمد إلى أبي محمد بن يغمور في إبنته فعقد له أيضاً عليها. واستخلص أبو ضربة اللحياني كبيرهما أبا محمد عبد الله وآثره بصحابته فلم يزل معه إلى أن كانت الوقيعة عليه بمصوح، وتقبض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم. ومن عليه السلطان أبو بكر ورقّاه في رتب عنايته إلى أن ولأه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم. ثم قدمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة إثنتين وأربعين وأربعمائة وبعثه إلى ملك المغرب مع إبنه الأمير أبي زكريا صاحب بجاية صريخاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة ابن السلطان وعرض سفارته. وتوخه لإيثار بعدها إليه، واختص بالسفارة إلى ملك المغرب سائر أيامه. وغصّ الحاجب ابن سيد الناس بمكانه وهم بمكروهه فكبح السلطان عنانه عنه، ويقال أنه أفضى إليه بذات صدره من نكبته. ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير، ومخالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد، كان له هو القدح المعلى في المشورة والتدبير، وكانوا يرجعون إليه ويعّولون على رأيه، وكان ثالث أثافيهم ومصقلة آرائهم.

ولما هلك الحاجب ابن عبد العزيز، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم،

لما كان يتعاطاه من الاستبداد ويحتجنه من أموال السلطان، وأسر الحاجب ابن عبد العزيز إلى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته، وأنه فاوضه أيام نزول العرب عليه بساح تونس سنة إثنتين وأربعين كما قدّمناه في الإدالة من السلطان ببعض الأعياص من بني أبي دبوس، كانوا معتقلين بالحضرة، ألقاها الغدر

على لسانه ضجراً من قعود السلطان عن الخروج بنفسه إلى العرب وسأمه مما هو فيه من الحصار فاعتدها عليه ابن عبد العزيز حتى ألقاها إلى السلطان عند موته، وبرىء منها إليه فأودعها اذناً واعية وكان حتف ابن الحكيم فيها. فلما هلك وولي شيخ الموحدين أبو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم، وكان بتربص به لما كان بينهما من المنافسة.

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدويخ القاصية، وقد نزل جبل أوراس واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور، وتقدم إلى ريغ ونازل تغرت وافتتحها، وامتلأت أيدي عساكرهم من

مكاسبهم وحليهم. واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظنّ أنّ السلطان لا يعدل بها عنه. وكان يرشح لها كاتبه أبا القاسم بن واران، ويرى أنّ ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها إيثاراً عليه، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون ونعر ثم أصحب، وأغذّ السير إلى الحضرة وقد واكب السلطان أبا محمد بن تافراكين في نكبته وأعد البطانة للقبض عليه وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع وأربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديته من المقربات والرقيق والأنعام، حتى إذا انفض المجلس وشيع السلطان وزراءه وانتهى إلى بابه أشار إلى البطانة فأحدقوا به ونلوه إلى محبسه. وبسط عليه العذاب لاستخراج الأموال فأخرجها من مكامن احتجانها، وحصل منها في مودع السلطان أربعمائة ألف من الذهب العين، ومثلها أو ما يقاربها من الجوهر والعقار إلى أن استصفى. ولما أمتك عظمه ونفد ماله خنق بمحبسه في رجب من سنته وذهب مثلاً في الأيام. وغرب ولده مع أمّه إلى المشرق، وطوح بهم الاغتراب إلى أن هلك منهم من هلك، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم لي آخرين من أصاغرهم بعد أيام وأحوال والله يحكم لا معقب لحكمه لحكمه.

الخبر عن شأن الجريد واستكمال فتحه وولاية ابنه أبي العباس عليه وولاية صاحب قابس أحمد بن مكي علي جزيرة جربة:

كان أمر الجريد قد صار إلى الشورى مند شغلت الدولة بمطالبة زناتة بني عبد الواد

وما نالها لذلك من الاضطراب، واستبد مشيخة كل بلد بأمره ثم انفرد واحد منهم

بالرياسة، وكان محمد بن يملول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بأمرها كما سنذكره. ولما فرغت الدولة إلى الاستبداد وأرهف السلطان حده للثوار وعفا على آثار المشيخة بقفصة، وعقد لإبنه الأمير أبي العبّاس على بلاد قسطيلية. ونزل بقفصة فأقام بها

ممهداً لأمارته مردداً بعوثه إلى البلاد اختباراً لما يظهرون من طاعته. وزحف حاجبه أبو القاسم بن عتّو بالعساكر إلى نفطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف، وكانوا إخوة أربعة استبدوا في رياستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب، ولاذوا بجدران الحصون التي ظنوا أنها مانعتهم وتبرأت منهم الرعايا فأدركهم الدهش، وسألوا النزول على حكم السلطان فجنبوا إلى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين، وأفلت السيف علياًّ صغيرهم لنزوعه إلى العسكر قبل الحادثة، فكانت له ذمّة واقية من الهلكة. وانتظم الأمير أبو العباس بلد نفطة في ملكته وجدد له العقد عليه أبوه. وتملّك الكثير من نفزاوة.

ولما استبيحت نفطة ونفراوة سمت همته إلى ملك توزر جرثومة الشقاق وعش الخلاف والنفاق، وخشي مقدّمها محمد بن يملول مغبة حاله وذهب إلى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه، إلى أن كان مهلكها في سنة واحدة واضطرب أمر توزر وتواثب بنوه وإخوته وقتل بعضهم بعضاً. وكان أخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فأطلقه السلطان من محبسه بعد أن أخذ عليه المواثيق بالطاعة والجباية، ومضى إلى توزر فملكها وطالبه الأمير أبو العباس صاحب قفصة وبلاد قسطيلية بالانقياد الذي عاهد عليه فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد. وصارت توزر لذلك شجاً معترضاً في صدر أمارته فخاطب أباء السلطان أبا بكر. وأغراه به فنهض إليه سنة خمس وأربعين، وانتهى إلى قفصة، وطار الخبر إلى أبي بكر بن يملول رئيسها يومئذ فأدركه الدهش وانفضّ من حوله الأولياء، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففرّ عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على أمره علي بن محمد التمودي المعروف الشهرة، ولحق ببسكرة في جوار يوسف بن مزني، وأغذ السلطان السير إلى توزر فخرج إليه أبو بكر بن بهلول وألقى إليه بيده وخلط نفسه بجملته.

ثم ندم على ما فرّط من أمره وأحس بالنكراء من الدولة، ونذر بالمهلكة فلحق بالزاب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقاه من الترحيب والقرى بما يحدث به الناس. ولما استولى السلطان على توزر

وانتظمها في أعماله عقد عليها لإبنه الأمير أبي العبّاس وأنزله بها وامكنه من رمتها ورجع السلطان إلى الحضرة ظاهرأ عزيزاً واتصلت

أيام ملكه إلى أن هلك على فراشه كما نذكر. واتصلت ممالك الأمير أبي العبّاس في بلاد الجريد وشاور أبو بكر بن يملول توزر مراراً يفلت في كلها من المهلكة إلى أن مات ببسكرة سنة سبع وأربعين قبيل مهلك الناس كما نذكر. وأقام الأمير أبو العباس بمحل إمارته، ولم يزل يمهّد الأحوال ويستنزل الثوّار. وكان ابن مكي قد امتنع عليه بقابس، وكان من خبره أنه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجبا له ذهب ابن اللحياني إلى المغرب، وأقام هو بقابس. ثم استراب بمئال أمره مع السلطان حين ذهب ملك آل زيان، وأوفد أخاه أحمد بن مكي على السلطان أبي الحسن متنصّلاً من ذنوبه متذمّماً بشفاعة منه إلى السلطان أبي بكر فشفع له وأعاده السلطان إلى مكان رياته. واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة.

وكان لأحمد بن مكي حظ من الخلال والأدوات، ونفس مشغوفة بالرياسة والسروّ.

وكان يقرض الشعر فيجيد ويرسل فيحسن، وكان خط كتابه أنيقاً ينحو به منحى الخط الشرقيّ شأن أهل الجريد فيمتع ما شاء، فكانت لذلك كله في نفى الأمير أبي العباس صاغية إليه. وكان هو مستريباً بالمخالطة لما شاء من إثارة السالفة. ولم يزل الأمير أبو العباس يفتل له في الذروة والغارب إلى أن جمعها مجلس السيدة أمة الواحدة اخت مولانا السلطان قافلة من حجها فمسح ما كان في صدره، وأحكم له عقد مخالصته واصطنعه لنفسه فحل من إمارته بمكان غبطة واعتزاز. وعقد له السلطان على جزيرة جربة، واستضافها إلى عمله، وأنزل عنها مخلوف بن الكماد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين، وعقد له السلطان عليها ونزلها أحمد بن مكي. واستقل أخوه عبد الملك برياسة قابس وأقاما على ذلك، وجرّدا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب أعمال الجريد فلم يزالوا كذلك إلى أن كان من أمر الجمع ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين:

كان السلطان أبو بكر عند نكبه القائد ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين أبا محمد بن تافراكين كما ذكرناه، وفوضّ إليه فيما وراء بابه، وعقد على
الوزارة لأخيه أبي العباس أحمد. وكان أبو محمد جلس بالباب لمكان الحجابة فدفع إلى الحرب وقود العساكر وإمارة الضاحية أخاه أبا العباس فقام بما دفع إليه من ذلك. وكان بنو سليم بعد مهلك حمزة بن عمر نقموا ما كان عليه من الإذعان، وسموا إلى الخلاف والعناد فكان من أبناء حمزة في ذلك من الأجلاب على الحضرة ما ذكرناه. وكان سحيم ابن... من أولاد القوس بن حكيم بهمة غوار ومارد خلاف وعناد وكان السلطان قد ولّى على حجابة إبنه الأمير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين، وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف، وينفس عليهم ما أتاهم الله من الرتبة والحظ، فلمّا ولي أبو محمد الحجابة ملىء منه حسداً وحفيظة، وداخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس بن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما أدّاه إليه وتكاتموا أمرهم. وخرج أبو العباس بن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لجباية هوارة فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضايقوه في الطلب. ثم انتهزوا الفرصة بعض الأيام وأجلبوا عليه، فانفض معسكره وكبابه فرسه فقتل وحمل شلوه إلى الحضرة فدفن بها. وجاهر سحيم بالخلاف وخرج إلى الرمال فلم يزل كذلك إلى حين مهلك السلطان كما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبد الله:

كان السلطان أبو بكر لما هلك الحاجب ابن غمر عقد على بجاية لإبنه الأمير أبي زكريا كبير ولده، وأنفذه إليها مع حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل أموره تحت نظره. ثم رجع القالون إلى تونس فأنزل معه ابن سيد الناس كذلك، فلما استبد بحجابة الحضرة جعل على حجابته أبا عبد الله بن فرحون. ثم لما تقبض على ابن سيّد الناس وعلى ابن فرحون وقد استبدّ الأمير أبو زكريا بأمره، وقام على نفسه فوض السلطان إليه الأمر في بجاية وبعث إليه ظافر السنان مولى أبيه الأمير أبي زكريا الأوسط قائداً على عسكره، والكاتب أبا إسحق بن غلان متصرفاً في حجابته فأقام ببابه مدة. ثم صرفهما إلى الحضرة، وقدم لحجابته أبا العباس أحمد بن أبي زكريا الرندي، كان أبوه من أهل العلم وكان ينتحل مذهب الصوفية الغلاة، ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين. ونشأ أحمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان، وترقى في الرتب إلى أن استعمله الأمير أبو

زكريا كما قلناه. ثم هلك وقد أنف السلطان أبو بكر من انتزاء هؤلاء السوقة على حجابة ابنه، فأنفذ لهم حضرته كبير الموحدين يومئذ صاحب السفارة أبا محمد بن تافراكين سني أربعين وسبعمائة فأقام أحوال ملكه، وعظم أبّهة سلطانه، وجهّز العساكر لسفره وأخرجه إلى أعماله فطاف عليها وتفقّدها، وانتهى إلى تخومها من المسيلة ومقرة. ولم يستكمل الحول حتى سخطه مشيخة من أهل بجاية لما نكروا من الابهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب السلطان، وتولى كبر ذلك القاضي ابن أبي يوسف تعنتاً وملالاً، واستعفى هو من ذلك فاعفي وعاد إلى مكانه بالحضرة.

ثم استقدم الأمير أبو زكريا حاجبه الأوّل لعهد ابن سيّد الناس، وهو أبو عبد الله

محمد بن فرحون، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة إلى ملك المغرب في الأسطول

الذي بعثه مدداً للمسلمين عند إجازة السلطان أبي الحسن إلى طريف. وكان أخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الأسطول بما كان قائد البحر ببجاية، فلما رجع ابن عبد الله بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكريا واستعمله على حجابته إلى أن هلك فولى من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته. ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب، اتصل بدار هذا الأمير وترقى في دبرانه إلى أن ولّاه خطة الحجابة. ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي، كان أبوه وعمّه قدما مع جالية الأندلس، وكانا ينتحلان القراآت. وأخذ أهل بجاية عن عمه أبي الحسن علي القراآت ، وكان خطيباً للرياسة، واتصل بحظية كانت لمولى أبي زكريا تسمّى امّ الحكم قد غلبت على هواه، فرسخت على ابن المنت هذا خطة الحجابة، واستعمله فيها فقام بها وأصلح معونات السلطان وأحوال مقاماته في سفره وجهّز له العساكر وجال في نواحي أعماله.

وهلك هذا الأمير في إحدى سفراته وهو على حجابته بتاكرارت من أعمال بجاية

من مرض كان أزمن به في ربيع الأول سنة سبع وأربعين وسبعمائة، وكان ابنه الأمير أبو عبد الله في حجر مولاه فارح من معلوجي بن سيد الناس. وكانوا اصطنعه فألفاه قابلا للترشيح فأقام مع ابن مولاه ينتظر أمر الخليفة، وبادر حاجبه الأول أبو القاسم بن علناس إلى الحضرة وأنمى الخبر إلى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الأمير أبي حفص كان معه الحضرة وهو من أصاغر ولده، وأنفذه إليها مع رجاله وأولي اختصاصه.

وخرج معه أبو القاسم بن علناس فوصل إلى بجاية ودخلها على حين غفلة. وحمله الأوغاد من البطانة على ارهاف الحدّ وإظهار السطو فخشي الناس البوادر وائتمروا. ثم كانت في بعض الأيام هيعة تمالأ فيها الكافة على التوثب بالأمير القادم، فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بإمارة ابن مولاهم. ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا عليه أمره وأخرجوه برفته بعد أن انتهبوا جميع موجوده، وتسايلوا إلى دار الأمير أبي عبد الله محمد ابن أميرهم ومولاهم بعد أن كان معتزماً على التقويض عنهم واللحاق بالخليفة

جده. وأذن له في ذلك عمه الأمير القادم فبايعوه بداره من البلد. ثم نقلوه من

الغد إلى قصره بالقصبة، وملّكوه أمرهم. وقام بأمره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمرّ حالهم على ذلك. ولحق الأمير أبو حفص بالحضرة آخر جمادى الأولى من سنته لشهر من يوم ولايته، إلى أن كان من شأنه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره. وتدارك السلطان أمر بجاية وبعث إليهم أبا عبد الله بن سليمان من كبار الصالحين من مشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم وبعث معهم كتاب العقد عليها لحافده الأمير أبي عبد الله محمد بن الأمير أبا زكريا ذهاباً مع مرضاتهم لسكنت نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم، وجرت الأمور إلى مصايرها كما نذكره إن شاء الله تعالى والله ولّي التوفيق.

الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية إبنه الأمير أبي حفص:

بينما الناس في غفلة من الدهر وظلّ ظليل من العيش وأمن من الخطوب تحت سرادق من العز وذمة واقية من العدل، إذ ريع السرب وتكدّر الشرف وتقلصت ظلال العز والأمن، وتعطّل فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الأربعاء ثاني رجب سنة سبع وأربعين وسبعمائة، فهبّ الناس من مضاجهم متسايلين إلى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى. وبادر الأمير أبو حفص عمر ابن السلطان من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب أبا محمد بن تافراكين من داره، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند، وأخذ الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص. ثم جلس من الغداة جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفته بعوائدها وقوانين ترتيبها، لقنه عن أشياخه أهل الدولة من الموحدين، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة إيمانهم. وانفض المجلس وقد انعقدت بيعته وأحكمت خلافته.

وكان الأمير خالد ابن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها رائدا منذ أشهر وأقام

متملياً من الزيارة، فلما سمع النعي فر من ليلته، وتقبض عليه أولاد منديل من الكعوب وردوه إلى الحضرة فاعتقل بها. وقام أبو محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلاّ أن بطانة السلطان كانوا يكثرون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه بذكر منافسات ومناقشة سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه، واتصل ذلك منهم غصاً بمكانه، ونذر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صحابتهم كما نذكر بعد، والله تعالى أعلم.

الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد:

كان السلطان أبو بكر قد عهد إلى إبنه الأمير أبي العبّاس صاحب أعمال الجريد

كما ذكرناه سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، فلما بلغه مهلك أبيه وما كان من بيعة أخيه، نعى على أهل الحضرة ما جاءوا به من نقض عهده. ودعا العرب إلى مظاهرته على أمره فأجابوه ونزعوا جميعاً إلى طاعته عن طاعة أخيه، بما كان مرهفاً لحده في الاستبداد والضرب على أيدي أهل الدولة من العرب وسواهم. وزحف إلى الحضرة ولقيه أخوه أبو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فأتاه طاعته وصار في جملته وجمع السلطان أبو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وأزاح العلل، وأخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس، وحاجبه أبو محمد بن تافراكين قد نذر منه بالهلكة، واعتمل في أسباب النجاة، حتى إذا تراءى الجمعان رجع الحاجب إلى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً من المغرب. وبلغ خبر مفره إلى السلطان فأجفل واختل مصافه، وتحيّز إلى باجة فتلوم بها وتخفف عنه أهل المعكسر فلحقوا بالأمير أبي العباس، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطابية، وأطلق أخاه أبا البقاء من معتقله.

ثم دخل إلى قصره سبع ليال من ملكه وصبحه الأمير أبو حفص ثامنها فاقتحم

عليه البلد لصاغية كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه أسمارهم، وطروقه منازلهم أيام جنون شبابه وقضاء لذاته في مرباه. وفتك بأخيه الأمير أبي العباس. ولسرعان ما نصب رأسه على القناة، وداست شلوه سنابك العسكر، وأصبح آية للمعتبرين. وثارت العامة بمن كانت بالبلد من وجوه العرب ورجالاتهم فقتلوا في تلك الهيعة من كتب عليه القتل. وتلّوا كثيراً منهم إلى السلطان فاعتقلهم، وقتل أبا الهول بن حمزة بن عمر من بينهم. وتقبض على إخوته خالد وعزوز، وأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم . واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابته أبا العباس أحمد بن علي بن زين من طبقة الكتاب، كان كاتباً للشخشي الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير. واتصل بالسلطان أبي بكر لأول ملكه بالحضرة فأسف علي بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه. ثم أطلق من محبسه ومضى إلى المغرب، ونزل على السلطان أبي سعيد فأحمد نزله. ثم رجع إلى الحضرة ولم يزل مشرداً أيام السلطان كلها، واستكتب الأمير أبو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة، فلما استوسق له الملك بعد مفر أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه، ولى أباه أبا العباس هذا على حجابته، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى أبيه وجده المعروف بالسنّان، واستخلص لنجواه وسرة مكتبه أبو عبد الله محمد بن الفضل بن نزارّ من طبقة الفقهاء ومن أهل البيوت النابهة بتونس، كان له بها سلف مذكور، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده. وقرأ عليه هذا الأمير أبو حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من أجل ذلك خصوصية به ومزيد عناية عنده. ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه، وجرت الحال على ذلك إلى أن كان من أمره ما نذ كره إن شاء الله تعالى والله تعالى أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن علي أفريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية وقسنطينة إلي المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث:

كان السلطان أبو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك أفريقية، ويتربص بالسلطان أبي بكر، ويسر له حسواً في ارتغاء. فلما لحق به حاجبه أبو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغبه في سلطانها واستحثه للقدوم عليها، وحرك له الحوار فتنبهت لذلك عزائمه. ثم وصل الخبر بمهلك وليّ العهد وأخويه وخبر الواقعة، فأحفظه ذلك بما كان من رضاه بعهده، وخطة الوفاق على ذلك بيده في سجله، وذلك أن حاجب الأمير

أبي العبّاس وهو أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه إلى السلطان أبي الحسن بهدية. وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان أبو الحسن، وسأل منه أمضاه لمولاه وكتاب ذلك بخطه في سجله فخطّه بيمينه وأحكم له عقده. فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلل بأن النقض أتى على ما أحكمه فأجمع غزو أفريقية ومن بها فعسكر ظاهر تلمسان، وفرق الاعطيات وأزاح العلل. ثم رحل في صفر من سنة ثمان رأربعين وسبعمائة يجر الدنيا بما حملت. وأوفد عليه أبناء حمزة بن عمر أمراء البدو بأفريقية، ورجالات الكعوب أخاهم خالداً يستصرخه لثأر أخيه أبي الهول الهالك يوم الواقعة فأجابهم.

ونزع إليهم أيضاً أهل القاصية بأفريقية بطاعتهم فجاءوا في وفد واحد: ابن مكي صاحب قابس وابن يهلول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة، فلقوه بوهران وأتوه بيعتهم رغبة ورهبة، وأدّوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس، ولم يتخلف عنهم إلا لبعد داره. ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور بن مزني، ومعه مشيخة الموحدين الزواودة، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقيه بنو حسن من أعمال بجاية

فأوسع الكل حباً وتكرمةً، وأسنى الصلاة والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله. وبعث مع أهل الجزائر الولاة للجباية لنظر مسعود بن إبراهيم اليرنياني من طبقة وزرائه، وأغذ السير إلى بجاية، فلما أطلت عساكره عليها توامر أهلها في الامتناع ثم أنابوا وخرج أميرها أبو عبد الله محمد بن الأمير أبي زكريا فأتاه طاعته، وصرفه إلى المغرب مع إخوانه، وأنزله ببلد ندرومة. وأقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله وخلفاءه. وسار إلى قسنطينة فخرج إليه أبناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد فأتوه طاعتهم، وأقبل عليهم وصرفهم إلى المغرب وأنزلهم بوجدة وأقطعهم جبايتها، وأنزل بقسنطينة خلفاءه وعئاله، وأطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه ومحمد ابن الأمير خالد وإخوانه وبنوه، وأصارهم في جملته حتى صرفهم إلى الغرب من الحضرة من بعد ذلك.

ووفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب فأخبروه بإجفال المولى أبي حفص من تونس مع ظواعن أولاد مهلهل، واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر، وسرح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه، وسرح عسكراً آخراً إلى تونس لنظر يحيى بن سلسمان من بني عسكر، ومعه أبو العباس بن مكي وسارت العساكر لطلب الأمير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس، وصبحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء. ثم انفضوا وكبابالأمير أبي حفص جواده في بعفى نافقاء الجرابيع وانجلت الغيابة عنه وعن مولاه ظافرراجلين فتقبض عليهما، وأوثقهما قائد الكتائب في قيده، حتى إذا جنّ الليل وتوقع أن يفلتهما العرب من أساره قبل أن يصل بهما إلى مولاه فذبحهما، وبعث برؤوسهما إلى السلطان أبي الحسن فوصلا إليه بباجة.

وخلص الفل من الواقعة إلى قابس فتقبض عبد الملك بن مكي على رجالات من

أهل الدولة، كان فيهم أبو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من أعيان الدولة فبعث بهم ابن مكي إلى السلطان.

فأما ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطّعهم من خلاف، واعتقل الباقين وسيقت العساكر إلى تونس. ثم جاء السلطان على أثرهم ودخل الحضرة في الزي والاحتفال في جمادى الآخرة من سنته، وخفيت الأصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي أهل الفساد. وانقرض أمر الموحدين إلا أذيالاً في بونة فإنه عقد عليها للمولى الفضل ابن مولانا أبي بكر لمكان صهره ووفادته عليه بين يدي مهلك أبيه. ثم ارتحل السلطان إلى القيروان ثم إلى سوسة والمهدية وتطوف على المعالم التي بها، ووقف على آثار ملوك الشيعة وصنهاجة في مصانعها ومبانيها، والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والأولياء وقفل إلى تونس ودخلها آخر شعبان من سنته والله تعالى أعلم.

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل علي بونة وأوّلية ذلك ومصائره:

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر إلى السلطان أبي بكر قبيل مهلكه في إحدى كرائمه، وأوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سويد من زغبة وصاحب شوراه وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي، كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه أبو عبد الله السطي وكاتب دولته أبو الفضل بن عبد الله بن أبي مدين وأمير الحرم عنبر الخصي، فأسعف السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة إبنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع أخيها الفضل، ومعه أبو محمد عبد الواحد بن أكمازير من مشيخة الموحدين، وأدركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم. فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبلهم بقبول حسن ورفع مجلس الفضل، ولما استتب له ملكها أعرض له عن ذلك، إلا أنه رعى له ذمّة الصهر وسابقة الوعد فأقنعه بالعقد على بونة مكان عمله منذ أيام أبيه، وأنزله بها عندما رحل عنها إلى تونس. واضطغن المولى الفضل من ذلك حقداً لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك

آبائه، ولحق وفادته وصهره وأقام بمكان عمله منها يؤّمل الكرة إلى أن كان من أمن ما نذكره والله أعلم.

الخبر عن بيعة العرب لإبن أبي دبوس وواقعتهم مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث:

كان السلطان أبو الحسن لما استوسق له ملك أفريقية أسف العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالإقطاعات والضرب على أيديهم في الأتاوات، فوجموا لذلك واستكانوا لغلبته وتربصوا الدوائر. وربمّا كان بعض البادية منهم يشن الغارات في الأطراف فيعتدها السلطان من كبرائهم. وأغاروا بعض

الأيام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان للسلطان في مراعيها، وأظلم الجو بينهم وبينه، وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه. ووفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه أحمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم. وساءت ظنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فداخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان. وكان من خبر عبد الواحد هذا أنه بعد إجفاله من تونس سنة إثنتين وثلاثين وثلثمائة كما ذكرناه لحق بأبي تاشفين فأقام عنده في مبّرة وتكرمة. ولما أخذ السلطان أبو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سأل عبد الواحد من أبي تاشفين تخليته للخروج فودعه وخرج للسلطان أبي الحسن فنزل عليه. ولم يزل في جملته إلى أن احتل بأفريقية. فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الأعياص من بني أبي حفص ينصبونهم للأمر رجوا أن يظفروا من عبد الواحد بالبغية فداخلوه وارتاب لذلك، وخشي بادرة السلطان فرفع إليه الخبر فتقبّض السلطان عليهم أربعتهم بعد أن أحضرهم معه فأنكروا وبهتوا.

ثم وبخهم واعتقلهم وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم، وتلوم لبعث الأعطيات

وإزاحة العلل، وبلغ الخبر إلى أحيائهم فقطع اليأس أسباب رجائهم. وانطلقوا يحزّبون الأحزاب ويلتمسون للملك الأعياص. وكان أولاد مهلهل أقتالهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضى بما بلغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرته فلحقوا بالقفر، ودخلوا الرمال فركب إليهم فتيتة بن حمزة وأمه ومعهما ظواعن أبنائهما متذمّمين لأولاد مهلهل بالعصبيّة والقرابة فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية، وتحاثوا التراب والدماء، وتدامروا بما شملهم من رهب السلطان، وتوقع بأسه. وتفقدوا من أعياص الموحدين من ينصبونه للأمر، وكان بتوزر أحمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس وأجلابه مع العرب على تونس أيام السلطان أبي عصيدة. ثم انفضوا، وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس إلى أن هلك بجزيرة جربة واستقر بنو إبنه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها أيام السلطان أبي بكر. ثم غربهم إلى الإسكندرية مع أولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله فنزلوا بالإسكندرية وأقبلوا على الحرف لمعاشهم. ورجع أحمد هذا من بينهم إلى المغرب واستقر بتوزر واحترف بالخياطة. ولما تفقد العرب الأعياص دلهم على نكرته بعض أهل عرفانه فانطلقوا إليه وجاءوا به وجمعوا له الآلة، ونصبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة. وزحف إليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم وأجفلوا أمامه إلى القيروان. ثم تدامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرم سنة تسع فاختلّ مصافه ودخل القيروان، وانتهبوا معسكره بما يشتمل عليه وأخذوا بمخنقه إلى أن اختلفوا وأفرجوا عنه، وخلص إلى تونس كما نذكر، والله تعالى أعلم.

الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الإفراج عن القيروان وعنها وما تخلل ذلك:

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبداً بأمره
مفوضاً

إليه في سائر شؤونه، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على مألوفه لما كان قائماً على أمره، وليس التفويض للوزراء من شأنه. وكان يظنّ أنّ السلطان أبا الحسن سيكل إليه أمر أفريقية وينصب معه الفضل للملك. وربما زعموا أنه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض وكان العرب يفاوضونه بذات صدورهم من الخلاف والإجلاب فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيل ابن تافراكين في الخروج عن السلطان لما تبين فيه من النكراء منه ومن قومه. وبعث العرب في لقائه وأن يحملوه حديث فيئهم إلى الطاعة فأذن له وخرج إليهم. وقلّدوه حجابة سلطانهم، ثم سرحوه إلى حصار القصبة. وكان السلطان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من حرمه وأبنائه ووجوه قومه، واستخلف عليها يحيى بن سليمان العسكري من كبار بطانته وأهل مجلسه ووجوه قومه. فلما كانت واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على أنفسهم فلجأ من كان معهم بتونس إلى قصبتها، وأحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار، وفرقوا الأموال في الرجال وعظم فيها غناء بشير من المعلوجين الموالي فطار له ذكر. وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب فوافاه الخبر دوين القيروان، فانفض معسكره ورجع إلى تونس فكان معهم بالقصبة.

ولما خرج ابن تافراكين من هّوة الحصار بالقيروان إليهم طمعوا في الاستيلاء على

قصبة تونس وفض ختامها فدفعوه إلى ذلك. ثم لحق به سلطانهم ابن أبي دبوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجل الذين كانوا بها، ونصبوا المجانيق عليها فلم يغن شيئاً، وهو أثناء ذلك يحاول النجاة لنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم إلى أن بلغه خلوعى السلطان من القيروان إلى سوسة. وكان من خبره أن العرب بعد إيقاعهم بعساكره أحاطوا بالقيروان واشتدوا في حصارها، وداخل السلطان أولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سليم في الإفراج عنه، واشترط لهم على ذلك الأموال واختلف رأي العرب لذلك ودخل عليه فتيتة بن حمزة بمكانه من

القيروان زعماً للطاعة فتقبله وأطلق إخوانه خالداً وأحمد، ولم يثق إليهم ثم دخل إليه محمد بن طالب من أولاد مهلهل وخليفة ابن ابي زيد وأبو الهول بن

يعقوب من أولاد القوس وأسرى معهم بعسكره إلى سوسة فصبحها وركب منها في أساطيله إلى تونس وسبق الخبر إلى ابن تافراكين بتونس فتسلل من أصحابه وركب السفين إلى الإسكندرية في ربيع سنة تسع وأربعين وسبعمائة.

وأصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا وأجفلوا عن تونس، وخرج أهل القصبة من أولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها. ونزل السلطان بها من أسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار، ورجا الكرة لولا ما قطع أسبابها عنه مما كان من انتزاء أبنائه بالمغرب على ما نذكره في أخبارهم. وأجلب العرب وابن أبي دبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا إلى مهادنته فعقد لهم السلم، ودخل حمزة بن عمر إليه وافداً فحبسه إلى أن تقبض على ابن أبي دبوس وأمكنه منه فلم يزل في محبسه إلى أن رحل إلى المغرب، ولحق هو بالأندلس كما نذكره في أخباره، وأقام السلطان بتونس، ووفد عليه أحمد بن مكي فعقد لعبد الواحد بن اللحياني على الثغور الشرقّية طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكي فهلك عند وصوله إليها في الطاعون الجارف، وعقد لأبي القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وهو الذي كان قطعه بإغراء أبي محمد بن تافراكين. فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو إلى مكانه وعقد له على بلاد قسطيلية، وسرحه إليها وأقام هو بتونس إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائهما بتمهيد الملك عليهما:

كان سنن السلطان أبو الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة

لإيراد جبايتهم والمحاسبة على أعمالهم، فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب، ووافاهم خبر الواقعة بقسنطينة وكان معهم ابن مزني عامل الزاب، وفد أيضاً بجبايته وهديته، وكان معهم أبو عمر تاشفين ابن السلطان

أبي الحسن، كان أسيراً من يوم واقعة طريف. وقعت المهادنة الطاغية وبين أبيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقته،

وقدموا معه على أبيه ووفد معه أخوه عبد الله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من أهل مالي في غرض السفارة، واجتمعوا كلهم بقسنطينة. فلما اتصل بهم خبر الواقعة على السلطان كثر الاضطراب، وتطلبت السفهاء من الغوغاء إلى ما بأيديهم وخشي الملأ من أهل البلد على أنفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة. ولما أطل على القسنطينة ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفود والعمال وانتهبوا أموالهم واستلحموا منهم، وخلص أبناء السلطان مع وفود السودان والجلالقة إلى بسكرة مع ابن مزني وفي خفارة يعقوب بن علي أمير الزواودة فأوسعهم ابن مزني قرى وتكرمة إلى أن لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع.

ودخل المولى الفضل إلى قسنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه. وشمل الناس

بعدله وإحسانه، وسوّغ الإقطاع والجوائز ورحل إلى بجاية لما أنس من صاغية أهلها إلى الدعوة الحفصيّة. فلما أطل عليها ثأر أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها استباحوهم وأفلتوا من أيدي نكبتهم بجريعة الذقن ودخل المولى الفضل إلى بجاية واستولى على كرسي ملكها، ونظمها مع قسنطينة وبونة في ملكه. وأعاد ألقاب الخلافة ورسومها وشياتها كما كانت، واعتزم على الرحيل إلى الحضرة. وبينما هو يحدث نفسه بذلك إذ وصل الخبر بقدوم أمراء بجاية وقسنطينة من المغرب، وكان من خبرهم أن الأمير أبا عنان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاء منصور ابن أخيه أبي مالك بالبلد الجديد دار ملكهم، وأحس بخلاص أبيه من هوّة الحصار بالقيروان فوثب على الأمر ودعا لنفسه، ورحل إلى المغرب كما نذكره في أخباره. وسرح الأمير أبا عبد الله محمد ابن الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء إلى عمله،. وأمده بالأموال وأخذ عليه المواثيق ليكونن له رداء دون أبيه، وليحول بينه وبين الخلوص إليه متى مر به. وانطلق أبو عبد الله إلى بجاية وقد سبقه إليها عمه الفضل، واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها، ولحق به بمكانه من منازلتها نبيل المولى من المعلوجي مع أبناء الأمير أبي عبد الله وكافل بنيه من بعده. وتقدم إلى قسنطينة وبها عامل من قبل الفضل فثار به الناس

لحينه، ودخل نبيل وملك البلد، وأقام فيها دعوة أبي زيد ابن الأمير أبي عبد الله. وكان الأمير أبو عنان استصحبه وإخوانه إلى المغرب وبعد احتلاله بفاس سرحهم إلى

مكان إمارتهم بقسنطينة بعد أن أخذ عليهم الموثق في شأن أبيه بمثل موثق ابن عمهم فجاءوا على أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد. واحتل أبو زيد منها بمكان إمارته وسلطان قومه كما كان قبل رحلتهم إلى المغرب.

ولم يزل الأمير أبو عبد الله ينازل بجاية إلى أن بيتها بعض ليالي رمضان من سنته بمداخلة بعض الأشياع من رجالها ، داخلهم مولاه وكافله فارح في ذلك فسرب فيهم الأموال وواعدوه للبيات، وفتحوا له باب البر من أبوابها فاقتحمها وفجأهم هدير الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسّنم الجبل المطل عليها متسرباً في شعابه، إلى أن وضح الصباح وظهر عليه فجيء به إلى ابن أخيه فمن عليه واستبقاه، وأركبه السفين إلى بلده بونة في شوال من سنة تسع وأربعين وسبعمائة. ووجد بعض الأعياص من قرابته قد ثاروا بها، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الأمير أبي زكريا الأكبر، كان هو وأخوه عمر بالحضرة، وكان لعمر منهما النظر على القرابة. فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم ببونة عند سفره إلى بجاية فحدثتهم أنفسهم بالانتزاء

فلم يتم لهم الأمر. وثارت بهم الحاشية والعامة ة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل إلى بونة وقد انجلت غيمتهم ومحيت آثارهم ودخل إلى قصره وألقى عصا تسياره، واستقل الأمير أبو عبدالله ابن الأمير أبي زكريا ببجاية محل أمارة أبيه، والأمير أبو زيد بن الأمير أبي عبد الله بقسنطينة محل أمارة أبيه، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محل إمارته منذ عهد الإمرة والسلطان أبو الحسن بتونس إلى أن كان من أمرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب:

كان العرب بعد ما قدمنا من طاعتهم وإسلامهم السلطان ابن أبي دبوس قد انقبضوا

عن السلطان أبي الحسن وأجلبوا عليه ثانية، وتولى كبر ذلك فتيتة بن حمزة، وخالف إلى السلطان أخوه خالد مع أولاد مهلهل وافترق أمرهم. وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجاً، واستقدم فتيتة وأصحابه الأمير الفضل

من مكان أمارته ببونة لطلب حقه، واسترجاع ملك آبائه فأجابهم ووصل إلى أحيائهم آخر سنة تسع وأربعين

وسبعمائة، فنازلوا تونس وأجلبوا عليها. ثم أفرجوا عنها وعاودوا منازلتها أول سنة خمسين وسبعمائة، وأفرجوا عنها آخر المصيف. واستدعاهم أبو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل، وحمل أهل الجريد كلهم عليها واتبعه في ذلك بنو مكي وانتقضت أفريقية على السلطان أبي الحسن من أطرافها فركب أساطيله إلى المغرب أيام الفطر من سنة خمسين وسبعمائة. ومضى المولى الفضل إلى تونس وبها أبو الفضل ابن السلطان أبي الحسن، كان أبوه قد عقد له عليها عند رحيله إلى المغرب تفادياً من ثورات الغوغاء ومضرة هيعتهم وأمن عليه بما كان قد عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته، فلما أطلت رايات المولى الفضل على تونس أيام الحج نبضت عروق التشيع للدعوة الحفصية، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجموه بالحجارة. وأرسل أبو الفضل إلى بني حمزة متذمّماً بصهرهم فدخل عليه أبر الليل وأخرجه ومن معه من قومه إلى الحي. واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغه مأمنه وهداه السبيل إلى وطنه، ودخل الفضل إلى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة، وجدد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة واستمر أمره على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن مهلك الفضبل وبيعة أخيه المولي أبي إسحق في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده:

لما دخل أبو العباس الفضل إلى الحضرة، واستبد بملكها عقد الى حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمه أبي القاسم ريثما يصل من الجريد، وعقد على جيشه وحربه لمحمد بن الشواش من بطانته. وكان وليه المطارد به أبو الليل فتيتة بن حمزة مستبداً عليه في سائر أحواله مشتطاً في طلباته. وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له، وأن يديل منه بولاية خالد أخيه. وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلده حجابته وفوض إليه في أمره، وجعل مقاد الدولة بيده فركب إليه البحر من سوسة، واستأنف له خالد بن حمزة ظهيراً على أخيه بعد أن نبذ إليه عهده، وفاوضهم

أبو الليل بن حمزة قبل استحكام أمورهم فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه إلى بونة على عساكرها. واضطرمت نار الفتنة بين أبي الليل بن حمزة

وأخيه خالد، وكاد شملهم أن يتصدع. وبينما هم يحشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب إذ قدم كبيرهم عمر، وأبو محمد عبد الله بن تافراكين من حجهم. وكان ابن تافراكين لمّا احتل بالإسكندرية بعث السلطان أبو الحسن فيه إلى أهل المشرق، وخاطب ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الأمير المستبد على الدولة حينئذ بيقاروس، وخرج من مصر لقضاء فرضه، وخرج عامئذ عمر بن حمزة لقضاء فريضة الحج أيضاً فاجتمعا في مشاهد الحج آخر سنة خمسين وسبعمائة، وتعاقدا على الرجوع إلى أفريقية والتظاهر على أمرهما وقفلا فألقيا خالداً وفتيتة على الصفين، فأشار عمر بن داية فاجتمعا وتواقفا ومسح الاحن من صدورهما، وتواطأوا جميعاً على المكر بالسلطان، وبعث إليه وليه قتيبة بالمراجعة فقبله واتفقوا على أن يقلد حجابته أبا محمد بن تافراكين حاجب أبيه وكبير دولته، ويديل به من ابن عتو فأبى.

ثم أصبحت ونزلت أحياؤهم ظاهر البلد، واستحثوا السلطان للخروج إليهم ليكملواعقد ذلك معه فخرج ووقف بساحة البلد إلى أن أحاطوا به، ثم اقتادوه إلى بيوتهم وأذنوا لابن تافراكين في دخول البلد فدخلها لإحدى عشرة من جمادى الأولى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة. وعمد إلى دار المولى أبي إسحق إبراهيم ابن معولانا السلطان أبي بكر فاستخرجه بعد أن بذل لأمه من العهود والمواثيق ما رضيته، وجاء به إلى القصر وأقعده على كرسي الخلافة، وبايع له الناس خاصة وعامّة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته. ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم، وسيق إليه أخوه الفضل ليلتئذ فاعتقله، وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض. ولاذ حاجبه أبو القاسم بن عتو يومئذ بالاختفاء في غيابات البلد وعثر عليه لليال فامتحن وهلك في امتحانه، وخوطب العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا به. واستقام ابن يملول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والهدية واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكي وذهب إلى الأجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجره عن التصرف في أمره واستبد عليه إلى أن كان ما نذكر إن شاء الله تعالى، والله تعالى أعلم.

الخبر عن حركة صاحب قسنطينة إلى تونس وما كان من حجابة أبي العباس بن مكيّ وتصاريف ذلك:

لما استولى أبو محمد بن تافراكين على تونس، وبايع للمولى أبي إسحق بالخلافة واستبد عليه نقم عليه الأمراء شأن استبداده وشمر ابن مكيّ للسعي عليه بمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر. واستعان على ذلك بأولاد مهلهل مقاسمي أولاد أبي الليل في رياسة الكعوب ومجاذبيهم حبل الأمارة. فلما رأوا صاغية بن تافراكين إلى أولاد أبي الليل أقتالهم أجمعوا له ولهم، وحالفوا بني حكيم من قبائل علاق، وأجلبوا على الضواحي وشنوا الغارات. ثم وفدوا على الأمير أبي زيد صاحب قسنطينة وأعمالها يستحثوهم للنهوض إلى أفريقية واستخلاص ملك آبائه ممن استبد عليه واحتازه، فسرح معه عسكرين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من مواليه وموالي أبيه وارتحلوا من قسنطينة. وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الزواودة بمن معه من قومه. وسرح أبو محمد بن تافراكين من الحضرة للقائهم عسكراً مع أبي الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالي السلطان، والتقى الجمعان ببلاد هوارة سنة إثنتين وخمسين وسبعمائة فكانت الدبرة على أولاد أبي الليل.

وقتل يومئذ أبو الليل فتيتة بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من أولاد القوس شيوخ

بني حكيم، ورجع فلهم إلى تونس فامتدت أيدي أولاد مهلهل وعساكر قسنطينة في البلاد وجبوا الأموال من أوطان هوارة، وانتهوا إلى أبه. ثم قفلوا راجعين إلى قسنطينة. وولي على أولاد أبي الليل مكان فتيتة أخوه خالد بن حمزة وقام بأمرهم. وكان أبو العباس بن مكيّ أثناء ذلك يكاتب المولى أبا زيد صاحب قسنطينة من مكان ولايته بقابس، ويعده من نفسه الوفادة والمدد بالمال والأحزاب والقيام باعطيات العرب، حتى إذا انصرم فصل الشتاء وفد عليه مع أولاد مهلهل فلقاه مبرة وتكريماً. وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهز آلته وأزاح علل تابعه، ورحل من قسنطينة سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة من صفر، وجهز أبو محمد بن

تافراكين سلطانه أبا إسحق بما يحتاج إليه من العساكر والالة، وجعل على حربه ابنه أبا عبد الله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيخة الكتاب، كان يعلم أبناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدّمناه، وفصل من تونس في التعبية حتى تراءى الجمعان كرّمحمد وتزاحفوا فاختل مصاف السلطان أبي إسحق، وافترقت جموعه وولّوا منهزمين. واتبعهم القوم عشية يومهم، ولحق السلطان بحاجبه جبي محمد بن تافراكين بتونس وجاءوا على أثره فنازلوا تونس أياماً وطالت عليها الحرب. ثم امتنعت عليهم وارتحلوا إلى القيروان، ثم إلى قفصة، وبلغهم أن ملك المغرب الأقصى السلطان أبا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط زحف إلى التخوم الشرقية وانتهى إلى المرية. وكان صاحب بجاية أبو عبد الله قد خالفهم إلى قسنطينة بمداخلة أبي محمد بن تافراكين واستجاشته. ونازل جهات قسنطينة وانتسف زروعها وشن الغارات في بسائطها فبلغه أنه رجع إلى بجاية منكمشاً من زحف بني مرين، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار إمارته قسنطينة. ورغب إليه أبو العباس بن مكيّ من أولاد مهلهل أن يخلف بينهم من إخوانه من يجتمعون إليه ويزاحفون به، فولى عليهم أخاه أبا العباس فبايعوه، وأقام فيهم هو وشقيقه أبو يحيى زكريا إلى أن كان من شأنه ما نذكر، وانصرف الأمير أبو زيد عند ذلك من قفصه يغدّ السير إلى قسنطينة واحتل بها في جمادى من سنته والله تعالى أعلم.

الخبر عن وفادة صاحب بجاية علي ابي عنان واستيلائه عليه وعلي بلده

ومطالبته قسنطينة:

كان بين الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الأمير أبي عنّان أيام أمارته بتلمسان، ونزول الأعياص الحفصيّين بندرومة ووجدة أيام أبيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة، أحكمها بينهما نسب الشباب والملك وسابقة الصهر: فكان للأمير أبي

عبد الله من أجل ذلك صاغية إلى بني مرين أوجد بها السبيل على ملكه. ولما مر به السلطان أبو الحسن في أسطوله عند ارتحاله من تونس كما

قدّمناه أمر أهل سواحله بمنعه الماء والأقوات من سائر جهاتها رعياً للذمة التي اعتقدها مع الأمير أبي عنان في شأنه وجنوحاً إلى تشييد سلطانه. ولما أوقع السلطان أبو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلهم إلى بجاية، أوعز إلى الأمير أبي

عبد الله باعتراضهم في جهاته والتقبّض عليهم فأجابه إلى ذلك، وبعث العيون بالمراصد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن، وعلى أخيه أبي ثابت الزعيم ابن عبد الرحمن، وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن مكن فأوثقوهم اعتقالاً، وبعث بهم إلى السلطان أبي عنان.

ثم جاء على أثرهم فتلقاه بالقبول والتكرمة وأنزله بأحسن نزل. ثم دس إليه من

أغراه بالنزول له عن بجاية رغبه فيما عند السلطان إزاء ذلك من التجلة والإدالة منها بمكناسة المغرب، والراحة من زبون الجند والبطانة، وإخفافا مما سواه إن لم يتعهده فأجاب إليه على اليأس والكره، وشهد مجلس السلطان في بني مرين بالرغبة في ذلك فأسعف وأسنيت جائزته، وأقطعت له مكناسة من أعمال المغرب. ثم انتزعها لأيام قلائل ونقله في جملته إلى المغرب، وبعث الأمير أبو عبد الله مولاه فارحاً المستبد كان عليه ليأتيه بأهله وولده وعقد أبو عنان على بجاية لعمر بن علي ابن الوزير من بني واطاس، وهم ينتسبون بزعمهم إلى علي بن يوسف أمير لمتونة فاختصه أبو عنان بولايتها لمتات هذا النسب الصنهاجي بينه وبين أهل وطنها منهم. وانصرفوا جميعاً من المرية. ولما احتلوا بجاية تآمر أولياء الدعوة الحفصية بها من صنهاجة والموالي وتمشت رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير وأشياع بني مرين، وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن إبراهيم بن الحاج في رجالات من قومه بإملاء فارح كما زعموا. وغدوا عليه بداره من القصبة، فأكب عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن فركان بما كان شيعة لبني مرين. ثم أجهزوا على عمر بن علي، ومضى القاضي إلى داره فمات. واتصلت الهيعة بفارح فركب إليها وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسنطينة

محمد بن أبي زيد، وطيروا إليه بالخبر واستحثوه للقدوم. وأقاموا على ذلك أياماً. ثم تآمر الملأ من أهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بوادره فثاروا

بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة، وبعثوا برأسه إلى السلطان بتلمسان. وتولى كبر ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيد الناس ومحمد ابى الحاجب أبي عبد الله بن

سيّد الناس ومشيخة البلد، واستقدموا العامل بتولس من بني مرين وهو لحيى بن عمر بن عد المؤمن من بني ونكاسن فبادر إليهم. وسرح السلطان أبو عنان إليها حاجبه أبا عبد الله محمد بن أبى عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين وسبعمائة. وذهبت صنهاجة في كل وجه فلحق كبراؤهم وذوو الفعلة منهم بثونى، وتقبض على هلال مولى ابن سيد الناس لما داخلته فيه من الظنة، وعلى القاضى محمد بن عمر لما كان شيعة لفارح، وعلى عرفاء الغوغاء من أهل المدينة وأشخصهم معتقلين إلى المغرب. وصوف نظره إلى تمهيد الوطن، واستدعى كراء العرس وأهل النواحي وأعمال بجاية وقسنطينة.

ووفد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة الزواودة فاسترهن أبناءهم على الطاعة، وقفل بهم إلى المغرب. واستعمل أبو عنّان على بجاية موسى بن إبراهيم البرنيانى من طبقة الوزراء وبعثه إليها. ولما وفدوا على السلطان جلس لهم جلوساً فخماً ووصلوا إليه ولقاهم لكرمة ومبرمة، وأوسعهم حباءً وإقطاعاً، وأنفذ لهم الصكوك والسجلات، وأخذ على طاعتهم العهود والمواثيق والرهن وانقلبوا إلى أهلهم. وعقد لحاجه أبي عمرو على بجاية وأعمالها وعلى حرب قسنطينة من ورائها، ورجعه إليها فدخلها في رجب من سنته.

وأوعز السلطان إلى موسى بن إبراهيم بالولاية على سدويكش والنزول ببني ياورار

فى كتيبة جهرها هنالك لمضايقة قسنطينة وجباية وطنها، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية وكان بقسنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها. وكان موسوساً في عقله معروفاً بالجنون عند قومه. وكان الأمراء بقسنطينة قله أسنوا جرايته في اعتاقاله وأوله من المحبرة والحفاوة كفاء نفسه. فلما زحفت كتائب بني مرين إلى بنى ياورار آخر عمر بجاية وأذنوا قسنطينة ومن بها بالحرب والحصار نصب المولى أبو زيد هذا الموسوس أبا عمر ليجأجىء به رجالات بني مرين أهل العسكر ببجاية وبني ياورار وجهز له الآلة وتسامعوا بدلك

فنزع إليهم الكثير منهم. وخرج نبيل حاجب الأمير أبي زيد إلى أهل صنهاجة من بونة

ومن كان على دعوته من سدويكش والزواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً إلى وطن بجايه، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الزواودة من مشاتيهم بالصحراء فأقبلوا إليه حتى نزلوا التلول. ووفد عليه أبو دينار بن علي بن أحمد واستحثه للحركة على قسنطينة فاعترض عساكره وأزاح عللهم، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين وسبعمائة فكر أبو عمر ومن معه راجعين إلى قسنطينة. وزحف الحاجب فيمن معه من بني مرين والزواودة وسدويكش، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة واكتسحت أموال بونة، ورجع ابن أبي عمر وعساكره إلى قسنطينة فأناخ عليها سبعاً. ثم ارتحل عنها إلى ميلة وعقد يعقوب بن علي بين الفريقش صلحاً على أن يمكنوه من أبي عمر الموسوس فبعثوا به إلى أخيه السلطان أبي عنان فأنزله ببعض الحجر، ورتب عليه الحرس. وسار الحاجب في نواحي أعماله، وانتهى إلى المسيلة واقتضى مغارمها، ثم انكفأ راجعاً إلى بجاية، وهلك فاتح ست وخمسين وسبعمائة. وعقد السلطان على بجاية وأعمالها بعده لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد من بني بابان وسرحه إليها فدخلها، وزحف إلى قسنطينة فحاصرها وامتنعت عليه فرجع إلى بجاية. ثم زحف من العام المقبل سنة سبع وخمسين وسبعمائة كذلك، ونصب عليها المجانيق فامتنعت عليه ورجف في معسكره بموت السلطان فانفضوا وأحرق مجانيقه. ورجع إلى بجاية وجمر الكتائب ببني ياورار لنظر موسى بن إبراهيم اليرنياني عامل سدويكش إلى أن كان من الإيقاع به وبعسكره ما نذكره إن شاء الله تعالى. والله أعلم.

الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها إلي ابن مكي:

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى أهل صقلية. كثيراً ما يحدثون أنفسهم بملكها. وكان ميخائيل الأنطاكي صاحب أسطول رجّار قد تملكها

من أيدي بني حزروق من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجة كما ذكرنا. ثم رجعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحدين ومرت عليها الأيام إلى أن استبد بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في أعوام خمسين وسبعمائة منقطعاً عن الحضرة مقيماً رسم الدعوة. وكان تجار الجنويين يترددون إليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها واتعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين، وانتشروا بالبلد في حاجاتهم. ثم بيتوها ذات ليلة فصعدوا أسوارها وملكوها عليهم. وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وهبوا من مضاجعهم. فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همهم إلا النجاة بأنفسهم. ونجا ثابت بن عمر

مقدمهم إلى حلة الجواري أعراب وطنها من دباب إحدى بطون بني سليم، فقتل لدم كان أصابه منهم. ولحق إخوته بالإسكندرية، واستباحها النصارى. واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرثى والمتاع والعقائل والأسرى وأقاموا بها. وداخلهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين ألفاً من الذهب العين فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنان يطرفه بمثبوتها. ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من أهل قابس والحافة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخبر. وأمكنه النصارى من طرابلس فملكها واستولى عليها، وأزال ما دنّسها من وضر الكفر. وبعث السلطان أبو عنان بالمال إليه، وأن يرد على الناس ما أعطوه وينفرد بمثوبتها وذكرها فامتنعوا إلا قليلاً منهم، ووضع المال عند ابن مكي لذلك، ولم يزل ابن مكي أميرأ عليها إلى أن هلك كما نذكره في أخباره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن بيعة السلطان أبي العباس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيدة بقسنطينة:

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الأمير أبي عبد الله بولاية جدّه الخليفة

أبي بكر، وكان إخوته جميعاً في جملته، ومنهم السلطان أبو العباس أمير المؤمنين لهذا

العهد، والمفرد بالدعوة الحفصيّة. وكان الناس من لدن مهلك أبيهم يرون أن الوراثة لهم، وأن الأمر فيهم، حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الوليّ أبي هادي المشهور الذكر، وكان من أهل المكاشفة، أنه قال ذات يوم، وقد جاءوا لزيارته بأجمعهم على طريقتهم وسنن أسلافهم في التبرك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء ثم قال: البركة إن شاء الله في هذه العشى، وأشار إلى الإخوة مجتمعين. وكان الحزى والمنجمون أيضا يخبرون بمثلها، ويحومون بظنونهم على أبي العباس من بينهم، لما يتفرّسون فيه من الشواهد والمخايل. فلما كان من منازلة أخيه أبي زيد لتونس سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة ما قدمناه، ثم ارتحل عنها إلى قفصة وأراد الرجوع إلى قسنطينة للإرجاف بشأن السلطان أبي عنان وأنه زحف إلى آخر عمله من تخوم بجاية، رغب حينئذ إليه أولاد مهلهل أولياؤه من العرب وشيعته وحاجبه أبو العباس بن مكي صاحب عمل قابس وجربة أن يستعمل عليهم من إخوته من يقيم معه لمعاودة تونس بالحصار، فسرح أخاه مولانا أبا العباس فتخلّف معهم في ذلك، وفي جملته شقيقه أبو يحيى فأقاما بقابس.

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث أسطوله لحصار جربة فدخل الأمير

أبو العباس بمن معه إلى الجزيرة، وخاضوا إليها البحر فأجفل عسكر ابن ثابت وأفرجوا عن الحصن. ثم رجع السلطان إلى قابس، وزحف العرب أولاد مهلهل معه إلى تونس وحاصروها أياماً فامتنعت عليهم. ورجع إلى أعمال الجريد وأوفد أخاه أبا يحيى زكريا على السلطان صريخاً سنة خمس وخمسين وسبعمائة فلقاه مبّرة ورحباً، وأسنى جائزته وأحسن وعده، وانكفأ راجعاً عنه إلى وطنه. ومر بالحاجب ابن أبي عمرو عند إفراجه عن قسنطينة، ولحق بأخيه بمكانه من قاصية أفريقية واتصلت أيديهما على طلب حقهما. وفي خلال ذلك فسد ما بين أبي محمد بن تافراكين صاحب الأمر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير أولاد أبي الليل فعدل عنه إلى أقتاله أولاد مهلهل، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه. وتحيز خالد إلى السلطان أبي العباس وزحفوا إلى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين وسبعمائة،

وامتنعت عليهم فأفرجوا عنها، واستقدمه أخوه أبو زيد إثر ذلك لينصره من عساكر بني مرين عندما تكاثفوا عليه، وضاق به الحصار

فأجابه وقدم عليه بخالد وقومه، وخرج الأمير أبو زيد مع خالد إلى منازلة تونس.

واستخلف على قسنطينة أخاه أبا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها، وأقام

بها مدة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعاه الأولياء إلى الاستبداد وأنه أبلغ في المدافعة والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر إليهم من بجاية فأجاب وبويع سنة خمس وخمسين، وانعقد أمره. وزحف عبد الله بن علي صاحب بجاية إلى قسنطينة في سنته، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب المجانيق. ثم أجفل آخرالإرجاف كما ذكرناه. وتنفس مخنق الحصار عن قسنطينة، وكان الأمير أبو زيد أخوه لما ذهب مع خالد إلى تونس ونازلها امتنعت عليه، ورجع وقد استبد أخوه بأمر قسنطينة فعدل إلى بونة وراسل أبا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والنزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الأمير أبو زيد لعمه السلطان أبي إسحق، وتحول إلى تونس فأوسعوا له المنازل وأسنوا الجرايات والجوائز، وأقام في كفالة عمه إلى أن كان من أمره ما نذكره.

الخبر عن واقعة موسي بن إبراهيم واستيلاء أبي عنان بعدها علي قسنطينة وما تخلل ذلك من الأحداث:

لما استبد السلطان أبو العباس بالأمر وزحفت إليه عساكر بجاية، وبني مرين

فأحسن دفاعها عن بلده. وتبين لأهل الضاحية مخايل الظهور فيه فداخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن إبراهيم وكتائبه المجمرة ببني ياورار، ودعوا إلى ذلك ميمون بن عليّ بن أحمد وكان منحرفاً عن أخيه يعقوب ظهير بني مرين ومناصحهم فأجاب. وسرح السلطان أخاه أبا يحيى زكريا معهم بمن في جملته من العساكر وصبحوهم في غارة شعواء، فلما شارفوهم ركبوا إليهم فتقدموا قليلا ثم أحجموا واختلّ مصافّهم واحيط بهم، وأثخن ة ائد العساكر موسى بن

إبراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيّان وأبو القاسم ومن إليهم، وكانوا اسود هياج وفرسان ملحمة

في آخرين من أمخالهم، وتتبعوا بالقتل والنهب إلى أن استبيحوا ونجا فلهم إلى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان. ولما بلغه الخبر قام في ركائبه وقعد، وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات.

واعترض الجنود وأزاح العلل، وشكى له موسى بن إبراهيم بقعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود، وتلوم بعده أشهراً في تجهيز العساكر، وبعث السلطان أبو العباس أخاه أبا يحيى إلى تونس صريخاً لعمه السلطان أبي إسحق فأعجله الأمر عن الإياب إليه، وارتحل أبو عنان في عساكره. ثم بعث في مقدمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار، وزحف على أثره في ربيع سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وأغذ السير إلى قسنطينة وقد نازلها وزيره ابن ودرار قبله. فلما نزل بساحتها، وقد طبق الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم أهل البلد، وأدركهم الدهش فانفضوا وتسللوا إليه وتحيز السلطان أبو العباس إلى القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالعهد. ثم نزل إليه فكفاه تكرمة ورحباً وبنى له الفساطيط في جواره. ثم بدا له في أيام قلائل فنقض عهده وأركبه السفن إلى المغرب، وأنزله بسبتة. وربت عليه الحرس، بعث خلال ذلك إلى بونة فدخلت في طاعته، وفر عنها عمال الحضرة. ولما استولى عقد على قسنطينة لمنصور بن خلوف شيخ بني يابان من قبائل بني مرين. ثم بعث رسله إلى أبي محمد بن تافراكين في الأخذ بطاعته والنزولى عن تونس فردهم، وأخرج سلطانه المولى أبا إسحق مع أولاد أبي الليل ومن إليهم من العرب بعد أن جهز له العساكر وما يصلحه من الآلة والجند وأقام هو بتونس وأجمع أبو عنان النهوض إليه، ووفد إليه أولاد مهلهل يستحثونه لذلك فسرح معهم عسكراً في البر لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي

كبير تيربيعين من قبائل. بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه، وسرح عسكراً آخرا في أسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالأندلس لهذا العهد، فسبق الأسطول وصبحوا تونس وقاتلوها يوماً أو بعض يوم. واتيح لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق بالمهدئة، واستولت عساكر بني مرين على تونس في

رمضان سنة ثمان وخمسين وسبعمائة، وحقّ لهم الزهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين، ولحق يحيى بن رحو بعسكره فدخل البلد، وأمضى فيها أوامر السلطان. ثم دعاه أولاد مهلهل إلى الخروج لمباغتة أولاد أبي الليل وسلطانهم فخرج معهم لذلك، وأقام ابن الأحمر وأهل الأسطول بالبلد. وفي خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبين من نكر السلطان أبي عنان وإرهاف حده للعرب، ومطالبتهم بالرهن، وقبض أيديهم عن الأتاوات ومسح أعطافه بالمدارات فلم يقبلها يعقوب بالرمل، وأتبعه السلطان فأعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالتل والصحراء فخربها وانتسفها.

ثم رجع إلى قسنطينة وارتحل منها يريد أفريقية، وقد نهض المولى أبو إسحق

بمن معه من العرب للقائه، وانتهوا إلى فحص سبتة. ثم تمشت رجالات بني مرين وائتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بأفريقية ما أصابهم من قبل فانفضوا متسللين إلى المغرب. ولما خف المعسكر من أهله أقصر عن القدوم على أفريقية فرجع إلى المغرب بمن بقي معه، واتبع العرب آثاره، وبلغ الخبر إلى أبي محمد بن تافراكين بمكان منجاته من المهديّة فصار إلى تونس. ولما أطل عليها ثار أهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعاملهم فنجوا إلى الأسطول، ودخل أبو محمد بن تافراكين إلى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة. ولحق به السلطان أبو إسحق بعد أن تقدم الأمير أبو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسنطينة فأتبعه إلى تخوم عملهم ورجع أبو زيد إلى قسنطينة وقاتلها أياماً فامتنعت عليه فانكفأ راجعاً إلى الحضرة. ولم يزل مقيماً بها إلى أن هلك عفا الله عنه. وكان أخوه أبو يحيى زكريا قد لحق بتونس من قبل صريخاً كما قلناه، فلما بلغهم أن قسنطينة قد احيط بها تمسكوا به فلحق به الفل من مواليهم وصنائعهم فكانوا معه إلى أن يسر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين، وأعاد السلطان أبا العباس إلى الأمر من بعد مهلك أبي عنان كما نذكر، وما إيالته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والأمان وشمول العافية والإحسان، وكف

أيدي العدوان. ورتع الناس من دولته في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكره بعد إن شاء الله.

الخبر عن انتقاض الأمير أبي يحيي زكريا بالمهدية ودخوله في دعوة أبي عنان ثم نزوله عنها إلى الطاعة وتصاريف ذلك:

كان الحاجب أبو محمد عند رجوعه إلى الحضرة صرف عنايته إلى تحصين المهديّة يعذها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب وأهله، فشيّد من أسوارها وشحن بالأقوات والأسلحة مخازنها ومستودعاتها، وعقد عليها للأمير زكريا أخي السلطان أبي إسحق، وكان في كفالته وأنزله بها. وبعث على حجابته أحمد بن خلف

من أوليائه وذويه مستبداً عليه فقام على ذلك حولاً أو بعضها. ثم ضجر الأمير أبو يحيى زكريا من الاستبداد عليه، واستنكف من حجره في سلطانه فبيت أحمد بن خلف فقتله، وبعث عن أبي العباس أحمد بن مكي صاحب جربة وقابس ليقيم له رسم الحجابة بما كان مناوئاً لأبي محمد بن تافراكين فوصل إليه، وطيّروا بالخبر إلى السلطان أبي عنان صاحب المغرب وبعثوا إليه ببيعتهم واستحثوه لصريخهم. واضطراب أمرهم وسرح أبو محمد بن تافراكين إليها العسكر فأجفلوا أمامه، ولحق المولى أبو يحيى زكريا بقابس، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها أبو محمد بن تافراكين محمد بن الجكجاك من ترابة ابن ثابت اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس، ولحق به فاستعمله على المهدية. ولما وصل الخبر إلى أبي عنان بشأن المهدية جهز إليها الأسطول وشحنه بالمقاتلة والرجل وعين الوالي والخاصة فألفوها قد رجعت إلى إيالة الحضرة، ووصل إليها ابن الجكجاك وقام بها وحسن غناؤه فيها إلى أن كان من أمره ما نذكر.

وأقام الأمير زكريا بقابس، وأجلب به أبو العباس بن مكي على تونس. ثم بعثوه

بالزواودة ونزل على يعقوب بن علي وأصهر إليه في إبنة أخيه سعيد، فعقد له عليها. ولما استولى أخوه أبو إسحق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الأعوام، ولم يزل بين الزواودة إلى أن هلك سنة ست وسبعين وسبعمائة كما نذكره بعد والله تعالى

أعلم.

الخبر عن استيلاء السلطان أبي إسحق علي بجاية وإعادة الدعوة الحفصية إليها:

لى لما رجع السلطان أبو عنّان من قسنطينة إلى المغرب أراح بسبتة، وسرح عساكره من العام المقبل إلى أفريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسنطينة ومعه ميمون بن علي بن أحمد أديل به من يعقوب على قومه من الزواودة، وعثمان بن يوسف بن سليمان شيخ أولاد سبّاع منهم. وحضر معه يوسف بن مزني عامل الزاب، أوعز إليه السلطان بذلك فدوخ الجهات وانتهى إلى آخر وطن بونة، واقتضى المغارم. ثم انكفأ راجعًا إلى المغرب. وهلك السلطان أبو عنّان إثر قفوله سنة تسع وخمسين وسبعمائة، واضطرب أمر المغرب. ثم استقام على طاعة أخيه السلطان أبي سالم كما نذكره، وكان أهل بجاية قد نقموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنّان سوء ملكته وشدة سطوته وعسفه فداخلوا أبا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به، فجهز إليهم السلطان أبا إسحق بما يحتاج إليه من العساكر والآلة، ونهض من تونس ومعه إبنه أبو عبد الله على العساكر. وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على أمرهم، وسار أخوه أبو دينار في جملتهم. ولما أطلوا على بجاية ثارت الغوغاء بيحيى بن ميمون العامل، كان عليهم منذ عهد السلطان أبي عنان فألقى بيده وتقبض عليه وعلى من كان من قومه، وأركبوا السفين إلى الحضرة، وأودعهم أبو محمد بن تافراكين سجونه تحت كرامة وجراية، إلى أن من عليهم من بعد ذلك وأطلقهم إلى المغرب. ودخل السلطان أبو إسحق إلى بجاية سنة إحدى وستين وسبعمائة، واستبد بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله أبو محمد يدبر أمره من الحضرة. ثم استقدم إبنه ونصب لوزارة السلطان أبا محمد عبد الواحد بن محمد من أكمازير من مشيخة الموحدين فكان يقيم لهم رسم الحجابة. وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية وأوغادها، التص عليه الشرار والدعار وأصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلب على الدولة، إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي إسحق صاحب الحضرة:

هذه الجزيرة جربة من جزر هذا البحر الذي يمر قريبا من قابس وإلى الشرق عنها
قليلاً، طولها من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً، وعرضها من ناحية المغرب عشرون ميلًا. ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً وبينها وبين قرقنة في ناحية المغرب ستون ميلا، وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب، واختصّت بالتفاح وعمل الصوف للباسهم يتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتمال، وغير المعلمة للّباس. وتجلب منها إلى الأقطار

فينتقيه الناس للباسهم. وأهلها من البربر من كتامة، وفيهم إلى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم، وفيهم أيضا من نفزة وهوارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديماً على رأي الخوارج وبقي بها إلى الآن فريقان منهم: الوهبية وهم بالناحية الغربية، ورياستهم ببني سمومن، والنكارة وهم بالناحية الشرقية. وجربة فاصلة بينهما. والظهور والرياسة على الكل لبني سمومن. وكان فتحها أول الإسلام على يد رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي بن حارثة من بني ملك بن النجار من الأنصار من جند مصر، ولاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا أفريقية وفتح جربة سنة سبع وسبعين بعدها، وشهد الفتح حنش بن عبد الله الصنعاني ورجع إلى برقة فمات بها. ولم تزل في ملكة المسلمين إلى أن دخل دين الخوارج إلى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن أبي يزيد سنة إحدى وثلاثين وثلثماية فأخذوا بدعوته بعد أن دخلوها عنوة، وقتل مقدمها يومئذ ابن كلدين وصلبه.

ثم استردها المنصور إسماعيل، وقتل أصحاب أبي يزيد. ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في إنشاء الأساطيل وغزو السواحل. ثم غزاهم علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس سنة تسع وخمسمائة

بأساطيله إلى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلح الحال. ثم تغلب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسمائة عند تغلبهم على سواحل أفريقية. ثم ثار أهلها عليهم وأخرجوهم سنة ثمان وأربعين وسبعمائة. ثم تغلبوا عليها ثانية وسبوا أهلها واستعملوا على الرعية وأهل الفلح. ثم عادت للمسلمين ولم تزل مترددة بين المسلمين والنصارى إلى أن غلب عليها الموحدون أيام عبد المؤمن، واستقام أمرها إلى أن استبد بنو أبي حفص بأفريقية. ثم افترق أمرهم بعد حين واستبد المولى أبو زكريا ابن السلطان أبي إسحق بالناحية الغربية، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه، فتغلب على هذه الجزيرة أهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستمائة وبنوا بها حصن القشتيل مربع الشكل في كل ركن منه برج، وبين كل ركنين برج. ويجاوره حفير وسوران. وأهم المسلمين شأنها، ولم تزل عساكر الحضرة تتردد إليها قط تقدم إلى أن كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد مخلوف بن الكماد من بطانته سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة واستضافها ابن مكي صاحب قابس إلى عمله فأضافها إليه، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده.

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكي، وبعث الحاجب أبو

محمد بن تافراكين عن أبيه أبي عبد الله، وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه. ولما وصل إليه سرحه في العساكر لحصار جربة وكان أهلها قد نقموا على ابن مكي سيرته فيهم، ودشوا إلى أبي محمد بن تافراكين بذلك فسرح إليه إبنه في العساكر سنة ثلاث وستين وسبعمائة. وكان أحمد بن مكي غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى وجعلها داراً لأمارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد الله ابن الحاجب أبي محمد، ونهض الأسطول في البحر فنزلوا بالجزيرة وضايقوا القشتيل بالحصار إلى أن غلبوا عليه وملكوه، وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة. واستعمل أبو عبد الله بن تافراكين كاتبة محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون، كان من صنائع الدولة منذ العهد، وكانت لأبيه قرابة من ابن عبد العزيز الحاجب يرقى بها إلى ولاية الأشغال بتونس مناهضاً لأبي القاسم بن

طاهر الذي كان يتولاها يومئذ، فكان رديفه عليها إلى أن هلك ابن طاهر فاستبد هو بها منذ أيام الحاجب أبي محمد،

واتصل إبنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب، واختص بكتابته إلى أن استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة، وانكفأ راجعاً إلى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها. ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وفرار إبنه من السلطان إلى أن غلبه عليها السلطان أبو العباس سنة أربع وسبعين وسبعمائة كما نذكره إن شاء الله.

الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس علي قسنطينة:

لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن بن عمر، ونصب إبنه محمد السعيد للأمر كما نذكره في أخباره. وكان يضطغن للأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فتقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعم. وكان السلطان أبو العباس بسبتة منذ أنزله السلطان أبو عنان بها، ورتب عليه الحرس كما ذكرنا، فلما انتزى على الملك منصور بن سليمان من أعياص ملكهم، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبتة فنهض إليه. وانتهى في طريقه إلى طنجة. ووافق ذلك إجازة السلطان أبي سالم من الأندلس لطلب ملكه. وكان أول ما استولى عليه من أعمال المغرب طنجة وسبتة فاتصل به السلطان أبو العباس وظاهره على أمره إلى أن نزع إليه قبيلة بنو مرين عن منصور بن سليمان المنتزي على ملكهم فاستوسق أمره واستتب سلطانه به، ودخل فاس. وسرح لأمير أبا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدمناه. ورعى للسلطان أبي العباس ذمة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جرايته، ووعده بالمظاهرة على أمره، واستقروا جميعاً في إيالته إلى أن كان من تغلب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب لأوسط ما ذكره في أخبارهم. واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون و رجالات قبيلهم فامتعض لذلك. وحين قفل إلى المغرب نفض يده من الأعمال الشرقية. ونزل للسلطان أبي

العباس عن قسنطينة دار إمارته ومثوى عزه ومنبت ملكه فأوعز إلى عاملها منصور بن خلوف بالنزول له عنها، وسرحه إليها، وسرح معه الأمير أبا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية والأجلاب على عمه السلطان أبي إسحق جزاء لمال نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرة. وارتحلوا من تلمسان في جمادى من سنة إحدى وستين وسبعمائة وأغذوا السير إلى مواطنهم. فأما السلطان أبو العباس فوقف منصور بن مخلوف عامل البلد علي خطاب سلطانه بالنزور عن قسنطينة فنزل وأسلمها إليه، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة إحدى وستين وسبعمائة، واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدأ سلطانه ومظهراً لسعادته ومطلعاً لدولته على ما نذكر بعد. وأما الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها، واجتمع إليه أولاد سباع أهل ضاحيتها وقفرها من الزواودة . ثم زحف إليها أياماً وامتنعت عليه فرحل عنها إلى بنى ياورار ، واستخدم أولاد محمد بن يوسف والعزيزين أهل ضاحيتها من سدويكش ثم نزعوا عنه إلى خدمة عمه ببجاية فخرج إلى القفر مع الزواودة إلى أن كان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيي زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها:

كان الأمير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه أبو العباس إلى عمهما السلطان أبي إسحق صريخاً لهم لم يزل مقيماً بتونس، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسنطينة فخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته، وتوقع زحفه إليه وغلبه إياه على الأمر. ورأى أن يحصر جناحه في أخيه، ويتوثق به فاعتقله بالقصبة تحت كرامة ورعي. وبعث فيه السلطان أبو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم. ولما وصل الأمير أبو يحيى إلى أخيه بقسنطينة عقد له عن العساكر،

وزحف إلى بونة فملكها سنة إثنتين وستين وسبعمائة، وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وأصارها نجماً لعمله واستمرت حالها على ذلك إلى أن كان ما نذكره إن شاء الله تعالى.

الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله علي بجاية ثم على تدلس بعدها:

لما قدم السلطان أبو عبد الله من المعرب، ونازل بجاية فامتنعت عليه خرج إلى أحياء العرب كما قدمناه ولزم صحابته أولاد يحيى بن علي بن سباع بعد توالي الوفاء بها. وأقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متعهداً في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف، وتكفلوا نفقة عياله ومؤنة حشمه وأنزلوه بتلك المسيلة من أوطانهم وتجافوا له عن جبايتهم وأقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً. وتحول في السنة الخامسة عنهم إلى أولاد علي بن أحمد، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقرة من بلاده إلى أن بدا لعمه المولى أبي إسحق رأيه في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين، أسره إليه بعض الجند فحذره مغبته، ووقع من ذلك في نفوس أهل بجاية انحراف عنه وحرج أمرهم وراسلوا أميرهم الأقدم أبا عبد الله من مكانه بمقرة. وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش أهل الضاحية، وارتحلوا معه إلى بجاية ونازلها أياماً. ثم استيقن الغوغاء اعتزام سلطانهم على التقويض عنهم، وسئموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريفاً عليهم فثاروا به ونبذوا عهده، وانفضوا من حوله إلى الأمير أبي عبد الله بالحرسّة من ساحة البلد. ثم قادوا إليه عضه أبا إسحق فمن عليه وخلى سبيله إلى حضرته فلحق بها واستولى أبو عبد الله على بجاية محل أمارته في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة وتقبض على عليّ بن صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء أهل الفتنة فاستصفى أموالهم، ثم أمضى حكم الله في قتلهم. ثم نهض إلى تدلس

لشهرين من ملكه بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد، ومن أعياص قبيلهم وتملكها في آخر سنة خمس وستين وسبعمائة. وبعث عني من الأندلس كنت مقيماً بها نزيلاً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطاوعة تقلب منذ مهلك السلطان أبي سالم الجاذب بضبعي إلى تنويهه، والراقي بي في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها. فلما استدعاني هذا الأمير أبو عبد الله بادرت إلى امتثاله { **ولو شاء ربّك ما فعلوه ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير**}[الأية.....] فأجزت البحر شهر جمادى من سنة ست وخمسين وسبعمائة، وقلدني حجابته ودفع إلي أمور مملكته، وتمت في ذلك المقام المحمود إلى أن أذن الله بانقراض أمره وانقطاع دولته، ولله الخلق والأمر وبيده تصاريف الأمور.

الخبو عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده

كان السلطان أبو إسحق آخر دولته ببجاية قد تحيّن مهلك حاجبه المستبد عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان أهل صناعة التنجيم يحدثونه بذلك، فأجمع الرحلة إليها، وانفض عنه أهل بجاية إلى ابن أخيه كما قدمناه. واستولى عليه ثم أطلقه إلى حضرته فلحق بها في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة. وتلقاه أبو محمد بن تافراكين، ورآه مرهف الحد للاستبداد الذي لفه ببجاية فكايله بصاع الوفاق، وصارفه نقد المصانعة، وازدلف بأنواع القربات. وقاد إليه الجنائب ومنحه من الذخائر والأموال، وتجافى له عن النظر في الجباية. ثم أصهر إليه السلطان في كريمته فعقد له عليها وأعرس السلطان بها. ثم كان مهلكه عقب ذلك سنة ست وستين وسبعمائة فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع بملحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم إزاء داره جوفي المدينة. وقام على قبره باكيا وحاشيته يتناولون التراب حثيا على جثده فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس، واستبد من بعده بأمره وأقام سلطانه لنفسه.

وكان أبو عبد الله الحاجب ابن أبي محمد غائبا عن الحضرة. خرج منها بالعسكر للجباية والتمهيد، فلما بلغه خبر مهلك أبيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر إلى الحضرة، وارتحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل أفريقية التي كان يظن أنها خالصة لهم. فصده محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة، فحمد بن الحكم صنيعه وطاف بهم على المهدية. وبعث إليه السلطان بما رضيه من الأمان فأصحب بعد النفور وبادر إلى الحضرة فتلقاه السلطان بالبر والترحيب، وقلده حجابته وأنزله على مراتب العز والتنويه والشرف ونكر هو مباشرة السلطان للناس ورفعه للحجاب، ولم يرضه لما ألف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان، ودبت عقارب السعاية لمهاده الوثير فتنكر وخرج من تونس ولحق بقسنطينة ، ونزل بها على السلطان أبي العباس مرغبا له في ملك تونس ومستحثا فأنزله خير نزيل ووعده بالنهوض معه إلى أفريقية بعد الفراغ من أمر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكره بعد. واستبد السلطان أبو إسحاق بعد مفر ابن تافراكين عنه، ونظر في أعطاف ملكه،

وعقد على حجابته لأحمد بن إبراهيم اليالفي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريحه من المعلوجي، ورفع الحاجب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جباة الخراج وعرفاء الحشم، وأوصلهم إلى نفسه وألغى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك إن شاء الله تعالى والله أعلم.

الخبو عن استيلاء السلطان أبي العباس علي بجاية وملك صاحبها ابن عمه:

لما ملك الأمير أبو عبد الله بجاية واستقل بإمارتها تنكر للرعية وساءت سيرته فيهم بإرهاف الحد للكافة وإسخاط الخاصة، فنغلت الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة، وتوجهت الصاغية إلى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنية لما كان استفسد منه وأعلن بلذته وأقوم على سلطانه. وكانت بينهم فتنة وحروب جرتها المنافسة في تخوم العمالتين منذ عهد الآباء. وكان السلطان أبو العباس أيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال مستقيم الطريقة في مثوى اغترابه. وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزعات المعرضة لصاحبها للملامة وستثقل نصيحته. وشغل بذلك ضميره فلما استولى على بجاية عاد إلى الفتنة فتنبه، وشفر عزائمه لها فكان مغلبا فيها. واعتلق منه يعقوب بن علي بذمة في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه، وراجع يعقوب سلطانه. ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تخوم قسطنطينة ففضها أبو العباس فنهض إليه ثانية بنفسه في العساكر، وتراجع العرب من أولاد سباع بن يحيى وجمع هو أولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاختل مصاف أهل بجاية وانهزموا، واتبعهم السلطان أبو العباس إلى تاكرارت وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه، وقفل إلى بلده.

ودخل الأمير أبو عبد الله إلى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين أهل بلده فدسوا إلى السلطان أبي العباس بقسطنطينة بالقدوم عليهم، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين في عساكره وشيعته من الدواودة أولاد محمد، وانضوى إليه أولاد سباع شيعة بجاية بالجوار والسابقة

القديمة لما نكروا من أحوال سلطانهم. وعسكر الأمير أبو عبد الله بلبزو في جمع قليل من الأولياء، وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح فبيته

السلطان بمعسكره من لبزو، وصبحه في غارة شعواء فانفض جمعه، واحيط به وانتهب المعسكر ومر إلى بجاية فأدرك في بعض الطريق وتقبض عليه، وقتل قعصا بالرماح. وأغذ السلطان أبو العباس السير إلى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين، وكنت بالبلد مقيما فخرجت إليه في الملأ، وتلقاني بالمبرة والتنويه. وأشار إلي بالاصطناع واستوسق له ملك جده الأمير أبي زكريا الأوسط في الغور العربية، وأقمت في خدمته بعض شهر. ثم توخمت الحنقة في نفسي وأذنته في الانطلاق فأذن لي تكرما وفضلا وسعة صدر ورحمة، ونزلت على يعقوب بن علي. ثم تحولت عنه إلى بسكرة ونزلت على ابن مزني إلى أن صفا الجو، واستقبلت من أمري ما استدبرت، واستأذنته لثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصه من شأني فاذن لي، وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته، وأشرقت علي أشعة بجعته كما نذكر ذلك من بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف أبي حمو وبني عبد الواد إلى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها:

كان الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه إياهم على تدلس، يكابد عن حمل العداوة من الجانبين وصغى إلى مهادنة بني عبد الواد فنزل لهم عن تدلس، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها. وأوفد رسله على سلطانهم أبي حمو بتلمسان، وأصهر إليه أبو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفها إليه بجهاز أمثالها. فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية، وهلك في مجال حربه أشاع أبو حمو الامتعاض له لمكان الصهر، وجعلها ذريعة إلى الحركة على بجاية. وزحف من تلمسان يجر الشوك والمدد في آلاف من قومه وطبقات العسكر والجند. وتراجع العرب حتى انتهى إلى وطن حمزة فأجفل أمامه أبو الليل بن موسى بن زغلي في قومه بني يزيد، وتحصنوا في جبال زواوة المطّلة على وطن حمزة. وبعث إليه رسله لاقتضاء طاعته فأوثقهم كتافاً ، وكان فيهم يحيى حامد أبي محمد

صالح نزع من السلطان أبي العباس إلى أبي حمو، وكان عيناً علي غرات أبي الليل هذا بما بينهما من المربى والجوار في الوطن فجاء في وفد الرسالة عن أبي حمو فتقبض عليهم وعليه، فقتله وبعث برأسه إلى بجاية.

وامتنع على أبي حمو وعساكره فأجلبوا على بجاية، ونزل معسكره بساحتها وقاتلها

أياماً. وجمع الفعلة على الآلات للحصار. وكان السلطان أبو العباس بالبلد وعسكره مع مولاه بشير بتكرارت، ومعهم أبو زيان بن عثمان بن عبد الرحمن، وهو ابن عم أبي حمو من أعياص بيتهم، وكان من خبره أنه كان خرج من المغرب كما نذكره في أخباره. ونزل على السلطان أبي إسحق بالحضرة ورعى له أبو محمد

الحاجب حق بيته فأوسع في كرامته. ولما غلب الأمير أبو عد الله على تدلس بعث إليه من تونس ليوليه علمها، ويكون ردأء بينه وبين بني حمو ويتفرغ هو للأجلاب على وطن قسنطينة فبادر إلى الإجابة وخرج من تونس. ومر السلطان أبو العباس بمكانه من قسنطينة فصده عن سبيله واعتقله عنده مكرماً. فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي حمو أطلقه من اعتقاله ذلك، واستبلغ في تكرمته وحبائه، ونصبه للملك وجهز له بعض الآلة. وخرج في معسكر مولاه بشير ليجأجىء به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي حمو لما سئموا من ملكته وعنفه.

وكان زغبة عرب المغرب الأوسط في معسكر أبي حمو، وكانوا حذرين مغبة أمر

معهم فراسلوا أبا زيان وائتمروا بينهم في الأرجاف بالمعسكر. ثم تحينوا لذلك أن يشب الحرب بين أهل البلد وأهل المعسكر فأجفلوا خامس ذي الحجة، وانفض المعسكر وانتهوا إلى مضائق الطرقات بساح البلد فكظت بزحامهم وتراكموا عليها فهلك الكثير منهم، وخففوا من الأثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف. وأسلم أبو حمو عياله وأمواله فصارت نهباً واحتلبت حظاياه إلى السلطان فوهبها لابن عمه. ونجا أبو حمو بنفسه بعد أن طاح في كظيظ الزحام عن جواده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاؤه عليه، ولحق بالجزائر في الفل. ثم لحق منها بتلمسان واتبع أبو زيان أثره واضطرب المغرب الأوسط كما نذكره في أخباره. وخرج السلطان أبو العباس من بجاية على إثر هذه الواقعة فنازل تدلس وافتتحها وغلب عليها فن كان بها من عمال بني عبد الواد، وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جذه الأمير أبي زكريا الأوسط حين قسم الدعوة الحفصية بها إلى أن كان ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

الخبر عن زحف العساكر إلى تونس:

كان أبو عبدالله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي

إسحق

صاحب الحضرة لحق بحلل أولاد مهلهل من العرب ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العباس فاتح سنة سبع وستين وسبعمائة يستحثونه إلى الحضرة ويرغبونه في ملكها فاعتذر لهم بما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية. وزحف إليها في حركة الفتح. وصاروا في جملته فلما استكمل فتح بجارة سرح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكريا في العساكر فصاروا معه إلى الحضرة، وابن تافراكين في جملته فنازلوها أياماً وامتنعت عليهم فأقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم وقفل المولى أبو يحيى بعسكره إلى مكان عمله. ولحق ابن تافراكين بالسلطان فلم يزل في جملته إلى أن كان من فتح تونس ما نذكر.

الخبر عن مهلك السلطان أبي إسحق صاب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده:

لم تزل حال السلطان أبي إسحق بالحضرة على ما ذكرناه، وتخلف في الفتنة والمهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور، واستخلص لدولته منصور أبي حمزة أمير بني كعب يستظهر به على أمره، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه. وعقد سنة تسع وستين وسبعمائة لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجند من مغراوة مستبداً على إبنه. وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه، وأوعز إليهم بتدويخ ضواحي بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا إليها. وسرح الأمير أبو يحيى زكريا صاحب بونة عسكره مع أهل الضاحية فأغنوا في مدافعتهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم. ولما رجعوا إلى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر وخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من لحقه من أعمال تونس. واستقدمه السلطان بعد أن استعتب له فلما قدم تقبض عليه وأودعه السجن. وعلى إثر ذلك كان مهلك السلطان فجاءة ليلة من سنة سبعين وسبعمائة بعد أن قضى وطراً من محادثة السمر، وغلبه النوم اخر ليله فنام، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً فاستحال السرور، وعظم الأسف وغلب على البطانة الدهش. ثم راجعوا بصائرهم ودفعوا الدهش عن أنفسهم وتلافوا أمرهم بالبيعة لإبنه الأمير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور